المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ الإنفاق في سبيل الله:

يقول د/ أبو فارس: «إذا كان هؤلاء الكفار الذي قضى الله أن يكونوا حطب جهنم يبذلون أموالهم وأنفسهم رخيصة في سبيل الشيطان، فأولى بالمؤمنين الذين آمنوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ويطمعون في رحمة الله ورضوانه، ويرجون جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أولى بهؤلاء المؤمنين أن يبذلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وليعلموا أن الله ﷻ قد خلق هذه الأنفس ورزق هذه الأموال، ويعطي بها الجنة، فيا له من إله كريم، قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة]».

[غزوة أُحد لأبي فارس ١٦].

٢ ـ أعداء الإسلام ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله:

ويقول أ/ عبَّاد: «هذا نموذج من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين وتلك الأمة، إنهم ينفقون أموالهم ويبذلون جهودهم ويستنفرون كيدهم دون ملل أو كسل للصد عن سبيل الله وإقامة العقبات في وجهه وفي حرب الفئة المؤمنة، فالمعركة لن تتوقف وأعداء الدين لن يتركوا أولياءه وحامليه يتحركون في أمان وطمأنينة، فها هي الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحالي تنفق الأموال ـ سواء قروض أو رشاوى أو منح أو غير ذلك ـ وتضع الخطط التي جاءت نتيجة فكر وعمل ومثابرة من أجل (أمركة) العالم وفرض نظام عالمي جديد، وتستخدم في مخططاتها المنظمات الدولية والإقليمية ـ الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والأمنية والتعليمية وغيرها، كما استخدمت الخونة والعملاء الذين جندتهم بالأموال أو بالمناصب لتنفيذ تلك المخططات، كل هذا من أجل مواجهة الحركات الإسلامية ومحو الإسلام.

وكان من خططها التي قد لا يفطن إليها الكثير من المسلمين طرح الديمقراطية الغربية ـ بمفهومها الغربي العلماني الإلحادي ـ بدلًا من الشورى الإسلامية، وطرح مفهوم حقوق الإنسان حتى ينسى الناس المفهوم الإسلامي لحقوق الإنسان فيرد الناس هذه القضايا الإنسانية إلى نظم وضعية ولا يردونها إلى المنهج الرباني، كما أنهم يواصلون الضغط لحل القضايا الإسلامية سياسيًّا بعيدًا عن المفهوم

الإسلامي لها (قضية القدس ـ البوسنة ـ كشمير... إلخ) والوقوف ضد التنمية الحقيقية في العالم الإسلامي ليظل تابعًا لهم، فمثلًا لا يسمح للدول الإسلامية بإنتاج الحبوب الرئيسة كالقمح ـ وما يحدث بمصر دليل دامغ حيث تزرع الفراولة والفواكه والكانتلوب، أما القمح فلا.

وهم يتولون بأنفسهم تدريب أجهزة الأمن في بلاد المسلمين ودفعها لاضطهاد العناصر الإسلامية والوطنية المخلصة واتهامها بالخيانة والعمالة والتخريب حتى تتهيأ البلاد للسيطرة الأجنبية؛ لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال]، فتلك الأموال التي تُنفق لحرب الله ورسوله والفئة المؤمنة ستعقبها إن شاء الله الندامة والحسرة، وقد حدث ذلك بالفعل، فأمريكا جعلت من إيران مخزنًا رئيسًا لها تضع به أسلحتها الحديثة، وأيَّدها الشاه بكل قواه، ولكن شاء الله أن تنقلب إيران على الشاه وتكون العدو الأول لأمريكا، وتستغل الثورة الإيرانية تلك الأسلحة لمحاربة أمريكا ومصالحها بالمنطقة.

وهذا شأن كل مال يُنفق في وجه غير مشروع ويرصد للصد عن اتباع طريق الحق، فأعداء الدين ـ في كل عصر ـ يريدون إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الباطل دون كلمة الحق، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون والمنافقون، وهو سبحانه ناصر دينه ومعلي كلمته، وهذا هو الخزي للكفار في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش من هؤلاء الأعداء رأى بعينه وسمع بأذنيه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٤-١٦].

٣ ـ العنجهية الجاهلية الفارغة:

يقول د/ الحميدي: «تبين لنا من استعدادات المشركين أن كفار قريش ومَنْ حالفهم قد اجتمعوا على محاربة المسلمين في المدينة.

وسبق لنا بيان ما حصل على الكفار في معركة بدر من الهزيمة وفَقْد عدد كبير من سادتهم، ووقوع عدد آخرين أسرى بأيدي المسلمين.

وكان من نتائج ذلك أن صمم هؤلاء الكفار على غزو المسلمين في عقر دارهم في المدينة، وكان قصدهم استئصالهم والقضاء على دينهم.

ولو نظرنا إلى الموضوع بنظرة مجردة عن اعتبار العقيدة وأن المسلمين يدافعون عن دينهم الحق وأن الكفار يدافعون عن دينهم الباطل، فإن تذكُّر ما فعله المشركون بالمسلمين من الأذى وهم في مكة على مدى عشر سنوات منذ أن جهر النبي ﷺ بدعوته، وما قاموا به عند هجرتهم من تجريدهم من أموالهم والاستيلاء على مساكنهم يجعل هؤلاء المسلمين في نظر العقلاء مظلومين ظلمًا منكرًا من الكفار، وأن ما

أصاب قوافل المشركين التجارية أو أصابهم في بدر يعتبر قليلًا بالنسبة لما أصابوا من المسلمين قبل ذلك وهم مجردون من القوة، فكانت النظرة الصحيحة والتفكير السليم لو كانوا يعقلون أن يقوموا بتصحيح خطئهم الفادح الذي ارتكبوه مع المسلمين الذين أصبحت لهم دولة قوية في المدينة، وذلك بعقد الصلح معهم وتعويض المهاجرين عن كل ما فقدوه من أموالهم.

ولكنهم ما زالوا على عنجهيتهم واستكبارهم وجهلهم حيث لم يعترفوا بخطئهم الذي ارتكبوه ضد المسلمين، وما زالوا يعتبرون أن المسلمين ضعفاء وأنهم ليس لهم كيان قوي يُخشى منه؛ فلذلك كان عزمهم على غزو المسلمين في المدينة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٦٤-٦٥].

٤ ـ الإخلاص:

يقول الشيخ عرجون: «هذا الموقف الكريم الذي وقفه العباس ﷺ موقف يستحوذ على ذروة الإخلاص، ويعيد للذاكرة موقفًا للعباس قبل أن يُسلم كان من أنبل المواقف وأشرفها بالنسبة لمواقف الحمية القومية، ذلك هو موقف العباس يوم بيعة العقبة الكبرى، فقد حضر بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ، وخطب خطبته المشهورة المروية بصحيح الروايات، وذكر فيها: إن محمدًا في عزٍّ ومنعة من قومه، فإن كنتم مبايعيه على تحمل عداوة الأحمر والأسود، فأنتم وما تحملتم، وإلا فدعوه بين قومه.

وتمت البيعة والعباس من شهودها وهو على دين قومه.

كما يُعيد هذا الموقف للذاكرة مواقف الحميَّة الهاشمية التي كان يقفها أبو طالب حمية قومية للنبي ﷺ دفاعًا وردًّا للعدوان على دعوته، بيد أن موقف العباس موقف ينم عن الإخلاص الإيماني الذي يجعل الباحث مطمئنًا إلى أن الإيمان برسالة محمد ﷺ كان يملأ قلب العباس قبل أن يلحق بمكة بعد إطلاقه من الأسر وقبول الفداء منه، كما يدل عليه قول العباس: فينا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾[الأنفال].

مواقف العباس وحِكمة بقائه في مكة ليرصد حركات المشركين ويحمي المستضعفين:

إذا كانت حميَّة أبي طالب جعلت موقفه ـ لعدم إيمانه ـ من قبيل الحب الطبيعي للقرابة الدانية والحمية القومية، فموقف العباس ﷺ كان موقف الحب الإيماني الذي يكنفه الإخلاص للمجتمع المسلم في ظل الإخاء الإيماني، فهو موقف لمحمد ﷺ ابن الأخ الحبيب.

وهو موقف لحماية رسالة محمد ﷺ، وحماية دعوته إلى الله تعالى.

وهو موقف لأداء حق الإيمان بهذه الرسالة الكريمة الراشدة.

وهو موقف للدفاع عن أصحاب محمد ﷺ، ومجتمعه المسلم.

وهو موقف يحمل بين طيَّاته دلائل على أن النبي ﷺ جعل من عمه العباس ﷺ رئيس مخابراته في مكة وجنديًّا من خواص جنود دعوته وحماية لها من الكيد وسوء المكر، وما يدبَّر لمجتمعها تحت أستار الظلام للقضاء عليه وعلى دعوته.

وهذا سلاح من أقوى أسلحة المعارك التي تربط النصر على الأعداء بنجاحه وإحكام أمره.

وكان العباس ﷺ يحب القدوم على رسول الله ﷺ ليقيم معه بالمدينة، ويشهد معه مشاهده، ويكون إلى جانبه في مواقفه، ولكن رسول الله ﷺ استبقاه بمكة ليقوم للدعوة بها لا يستطيع جندي يحمل سلاحه ويخوض معمعة المعركة أن يقوم به.

والمتأمل في هذه السياسة الحكيمة التي وضع أساسها رسول الله ﷺ يظهر له جليًّا ما فيها من حسن التدبير المحكم الذي يحف به التوفيق من جميع جوانبه؛ لأنها سياسة تمثل ما ينبغي للقائد الأعلى أن يتخذه في مواقفه الحذرة التي لا تنام ولا تنيم.

قال القسطلاني في المواهب: وكان العباس ﷺ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان العباس يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه ﷺ: «**إِنَّ مُقَامَكَ بِمَكَّةَ خَيْرٌ لَكَ**».

[الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/ ٨١٢].

وهو خير للمسلمين ـ أيضًا ـ لما فيه من العون للمقيمين بها من المسلمين المستضعفين، وتقوية ثباتهم على الإيمان، ولما فيه من معرفة أخبار أعداء الإسلام، وتآمرهم على المجتمع المسلم ومكرهم به، ووضع هذه الأخبار بين يدي رسول الله ﷺ في حينها المناسب لاتقاء أخطارها، وأخذ الأهبة لردِّ ما فيها من كيد للإسلام والمسلمين، وكان هذا من دأب رسول الله ﷺ، كما أوضحناه في الحديث عن بدر، وعلى هذا السَّنن درج رسول الله ﷺ، وقد بعث أنسًا ومؤنسًا ابني فَضَالة الظفري في غزوة أُحد ليتعرَّفا له أخبار عدوه، فذهبا وقاما بما كلفهما رسول الله ﷺ، وعادا فأخبراه بخبرهم، وذكروا له أنهم أرسلوا إبلهم وخيلهم في زروع الأنصار بالصمغة حتى تركوها ليس بها خضراء، وكان ذلك من بواعث الحمية في أنفس الأنصار». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٤٧-٥٤٩].

٥ ـ ما يُستفاد من تصرف العباس ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «ويستفاد من تصرف العباس أمور هامة منها:

١ـ إن هذا العمل من العباس ﷺ يُعد تضحية وجُرأة يشهد المرء له بها، كيف لا؟ وهو يُعرِّض نفسه للهلاك والموت المحقق، فإن التجسس لأعداء بلده جريمة في نظر القانون المكي الجاهلي تستوجب عقوبة الإعدام، وهو لا يجهل هذا، لا سيما والجيش الذي يسير نحو المدينة جيش موتور قد فقد عشرات القتلى

والأسرى في بدر، وهو سائر إلى الانتقام، والرسالة من شأنها أن تُفَوِّت عليه غرضه في المفاجأة بالضربة القاضية.

٢ ـ إن إقدام العباس ﷺ على هذا التصرف وتعاطفه مع المسلمين يدل على حب العباس لهم، ورغبته في انتصارهم على أهل مكة، وهذه عاطفة صادقة تقدر.

ونحن نقول: لعل هذه العاطفة الصادقة والتضحية الجريئة نابعتان من عقيدة الإسلام التي كان يعتنقها سرًّا، ولا تعلم قريش بذلك، وبقي في مكة بعلم الرسول ﷺ عينًا للمسلمين على المشركين.

ويقوي ما ذهبنا إليه عدم خروجه في هذه المعركة لقتال المسلمين.

وما رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسر العباس في بدر قال له الرسول ﷺ: «**يَا عَبَّاسُ، افْدِ نَفْسَكَ، وَابْنَ أَخِيكَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَنَوْفَلَ بْنَ الحَارِثِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ جَحْدَمٍ**» ـ أَحَدُ بَنِي الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ ـ قَالَ: فَأَبَى، وَقَالَ: **إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا اسْتَكْرَهُونِي، قَالَ ﷺ: «اللهُ أَعْلَمُ بِشَأْنِكَ، إِنْ يَكُ مَا تَدَّعِي حَقًّا فَاللهُ يَجْزِيكَ بِذَلِكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا، فَافْدِ نَفْسَكَ»**. [الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ١٤/ ٩٧، ومسند أحمد ٥/ ٣٣٤ رقم ٣٣١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن، وهذا إسناد ضعيف لإبهام راويه عن عكرمة].

ويعضد قولنا أيضًا أمر النبي ﷺ المسلمين في بدر إذا لقوا العباس بن عبد المطلب ألا يقتلوه.

فالنبي ﷺ في الحديث المتقدم لم ينف عنه صفة الإسلام والإيمان، ولكن عامله على ما ظهر منه، ولعل النبي ﷺ بأخذه الفداء منه لم يُرِدْ كشف حقيقة إسلام العباس حتى يعود إلى مكة عينًا للمسلمين دون أن يحذر منه المشركون؛ لأنه لم يظهر إسلامه في مكة، بل ظاهره يؤيدهم، أو على الأقل يسالمهم.

٣ ـ عنصر المباغتة في الحرب له أثره وأهميته في النصر، وقد فوته العباس ﷺ على أهل مكة.

٤ ـ إتقان العباس ﷺ للكتابة جعله يحفظ سره لنفسه، ولم يُطلع عليه أحدًا غيره، هذه فائدة من فوائد الكتابة، ولو كان أميًّا وكلف غيره أن يكتب له لافتضح سره؛ لأنه تجاوز صدره إلى غيره.

٥ ـ اختيار العباس ﷺ لحامل الرسالة أن يكون رجلًا من بني غفار كان موفقًا جدًّا؛ لأن الشبهة بعيدة بحقه، وفي حدسنا أن العباس ﷺ اختار الغفاري لإبعاد الشبهة عنه وعما يحمل من جهة، فلا يسأله أحد، ولا يرتاب فيه أحد إن لقيه في الطريق، ومن جهة أخرى فإن بني غفار رجال أشداء، يعرفون المنطقة، ويجوبون طرقها، وأصحاب خبرة بطرقها إلى يثرب.

٦ ـ إصرار العباس على الغفاري أن تصل الرسالة إلى الرسول ﷺ في ثلاثة أيام له هدف في غاية الأهمية، وهو أن يصل الخبر إلى الرسول ﷺ قبل أن تصل جيوش قريش وحلفائها إلى المدينة، فيتمكن النبي ﷺ من تدبير الأمر، ورسم الخطة، ومواجهة الاعتداء.

فالمعلوم أن هذا الجيش يستغرق في قطع هذه المسافة الشاسعة بين مكة والمدينة سبعة أيام على الأقل.

وهكذا استطاع الغفاري أن يصل إلى المدينة، ويسأل عن مسجد النبي ﷺ على الفور، فلا يجده هناك، ويكرر البحث عنه حتى يجده في مسجد قباء، فيعطيه الرسالة مختومة كما استلمها، قبل وصول قريش بزمن كاف للإعداد والتخطيط والتنفيذ.

٧ ـ الحيطة والحذر اللذان كانا عند العباس ﷺ، وهو يزود الغفاري بالخبر مكتوبًا.

وأخيرًا فلا غرو إذا علمنا أن الجيوش العالمية، تحرص أشد الحرص أن تخترق أعداءها، ويكون لها أنصار يزودونهم بأخبارهم وتحركاتهم، وعَددهم وعُدتهم، وكل شيء عنهم، وينفقون في سبيل ذلك أموالًا تنوء بحملها العصبة أولو القوة من الرجال.

وها هو ذا النبي ﷺ يتخذ له العيون على المشركين، فقد قَدِم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة وقد فارقوا قريشًا من ذي طوى فأخبر النبي ﷺ بمسير قريش ثم انصرفوا.

ونحن نفاخر الدنيا وأهلها بحنكة هذا الرسول العظيم ﷺ، ونعلن أن على الرجال العسكريين أن يتعلموا منه ﷺ الدروس في مجال الاستخبارات والتخطيط، فقد كان له قصب السبق في هذه الأمور كما تقدم شرحنا لها». [غزوة أُحد لأبي فارس ١٨-٢١].

٦ ـ أهمية كتمان الأسرار:

يقول د/ أبو فارس: «ولما وصل الغفاري ومعه رسالة العباس بن عبد المطلب ﷺ إلى رسول الله ﷺ مختومة، ثم فك ختمها، ودفعها إلى أبي بن كعب ﷺ فقرأها عليه، فاستكتمه النبي ﷺ، ثم مر على سعد بن الربيع ﷺ فاستكتمه الخبر.

إن موقف النبي ﷺ هذا يعلمنا السرية في الأمور كلها وخاصة الأمور العسكرية، فلا يضع سره إلا عند رجال يحفظون السر ويُقَدِّرون خطورة إفشائه، لقد استكتم أُبي بن كعب وسعد بن الربيع، فحفظا سره من أقرب الناس إليهما، فكُتب السيرة تخبرنا أن زوج سعد بن الربيع ﷺ قد سألته عما دار بينه وبين الرسول ﷺ من حديث فأخفى عليها كل شيء، وقال لها بحزم: «**مَا لَكِ وَلِذَلِكَ لا أُمَّ لَكِ**؟»، فأخبرته بأنها سمعت ما دار بينه وبين الرسول ﷺ، فاسترجع وانطلق بها إلى رسول الله ﷺ، فأدركه وأخبره خبرها، وقال: **يَا رَسُولَ الله إِنِّي خِفْتُ أَنْ تَفْشُو الـخَبَرَ فَتَرَى أَنِّي الـمُفْشِي لَهُ، وَقَدِ اسْتَكْتَمْتَنِي إِيَّاهُ**، فقال ﷺ: «**خَلِّ عَنْهَا**». [أنساب الأشراف ١/ ٣١٤].

وكانت هذه المرأة حافظة لسر رسول الله ﷺ، فلم يُذكر عنها أنها تحدثت بالخبر.

ويستفاد من هذا درس هو أن يحذر العسكريون من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغي ألا يحدِّثوا أصدقاءهم بشيء من هذا، فإن إفشاء مثل هذه الأسرار يهدد كيان الأمة ومستقبلها، ويؤدي إلى إلحاق الأذى بأعراض المسلمين وأموالهم ودمائهم.

تأمل معي موقف سعد بن الربيع ﷺ مع زوجه حينما سألته وإجابته الحازمة الصارمة: «**مَا لَكِ وَلِذَلِكَ لا أُمَّ لَكِ؟**».

والتاريخ العسكري في القديم والحديث ينبئنا أن كثيرًا من الهزائم والمآسي والآلام قد حلت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها، عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق أو قريب في الظاهر عدو في الحقيقة والواقع». [غزوة أُحد لأبي فارس ٢١-٢٢].

ويقول د/ الزيد: «لما بلغ الرسول ﷺ كتابُ العباس ﷺ والذي فيه خبر مسير قريش إليه طلب من أُبي بن كعب ﷺ أن يكتم هذا الأمر ولا يخبر به، وفي هذا مشروعية الكتمان لما يخشى من عاقبة إفشائه، وإطلاع الغير عليه، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**». [صحيح: (عق عد طب حل هب) عن معاذ بن جبل (الخرائطي في اعتلال القلوب) عن عمر (خط) عن ابن عباس (الخلعي في فوائده) عن علي ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير (٩٤٣)، والسلسلة الصحيحة (١٤٥٣)].

فإذا كان لشخص حاجة أو لديه خبر في اطلاع الغير عليه ضرر، فإن من المصلحة أن يكتم ولا يتحدث، فإن إخبار الناس ـ مثلًا ـ بخبر كتاب العباس ﷺ للرسول ﷺ ومسير قريش فيه ما يَسُرُّ اليهود والمنافقين ويُحزن الذين آمنوا ويُدخل الخوف عليهم، والرسول ﷺ يريد أن يستعد لهذا الأمر دون أن يعلم العدو أنه قد علم بخروجهم إليه». [فقه السيرة للزيد ٤٤٤-٤٤٥].

٧ ـ المسلم لا يُعَرِّضُ نفسه مواضع التهم والشبهات:

يقول أ/ عبَّاد: «وموقف سعد بن الربيع ﷺ يجعل كل فرد في الجماعة المسلمة حريصًا على ألا يضع نفسه مواضع التهم والشبهات ثم يلوم الآخرين أنهم لا يثقون به، وعليه أن يوضح ما يحدث له أو حوله لقائده حتى لا تتردد كلمة أو يحدث حدث فيظن به سوءًا.

وقد ضرب ﷺ المثل من نفسه لنقتدي به ونتأسى في البعد عن كل شبهة، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله! يَا رَسُولَ الله! قَالَ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا**».

[البخاري في بدء الخلق (٣٢٨١)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)].

وقد أدرك الصحابة خطورة أن يضع الإنسان نفسه مواضع التهم والشبهات فقد أورد الشيخ علي طنطاوي في أخبار عمر ﷺ أنه بينما يمر في الطريق فإذا هو برجل يكلم امرأة فعلاه بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما هي امرأتي، فقال له: فلِمَ تقف مع زوجتك في الطريق تعرضان المسلمين إلى غيبتكما؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الآن قد دخلنا المدينة ونحن نتشاور أين ننزل، فدفع إليه الدرة، وقال: اقتص مني يا عبد الله، فقال: هي لك يا أمير المؤمنين، فقال: خذ واقتص، فقال بعد ثلاث: هي لله، قال: الله لك فيها. [الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحب الدين الطبري ٢/ ٣٧٤-٣٧٥].

من هنا يجب على المسلم تجنب الوقوع في الشبهات، ثم الحرص على دفع هذه الشبهات إن وقعت خطأ أو عن غير قصد». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٦-٢٧].

٨ ـ التواضع:

يقول د/ الحميدي: «وفي خبر رؤيا رسول الله ﷺ ومشورة أصحابه مواقف منها:

اهتمام النبي ﷺ باستشارة أصحابه مع أنه قد رأى في الرؤيا ما يؤيد أحد الأمرين اللذين استشارهم فيهما، وهو الإقامة في المدينة وقتال الأعداء من داخلها.

ومما يزيد هذا الموقف بهاء وعظمة أن النبي ﷺ نزل على رأيه إلى رأي المخالفين له المتحمسين للقتال خارج المدينة، وهو بذلك يضرب مثلًا عاليًا للمسؤولين من أمته بألا يصروا على رأيهم وإن رأوا أنه الأقرب إلى الصواب، وأن يتخلقوا بخلق التواضع الذي من آثاره إتاحة الفرصة للأفراد أن يدلوا بآرائهم عن طريق الشورى، ثم الوصول بعد ذلك إلى الرأي الذي يتم ترجيحه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٧٥-٧٦].

٩ ـ الشجاعة:

يقول الحميدي: «في هذا الخبر تصوير لشجاعة المسلمين واندفاعهم القوي نحو الجهاد الذي هو مظنة ذهاب النفوس أو بعض الأعضاء، وحينما تأتي الأوامر من النبي ﷺ بالخروج للقتال فإن الاستجابة قد تكون من باب الطاعة وتنفيذ الأمر، ولكن حينما يكون رأي النبي ﷺ لزوم المدينة والتحصن بها، ثم يندفع هؤلاء المتحمسون إلى طلب الخروج فإن ذلك لا يفسَّر إلا بأنه شوق بالغ إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، ومن وراء ذلك الشوق العظيم إلى الظفر برضوان الله تعالى والجنة.

ونجد أن هؤلاء الصحابة يندفعون إلى الجهاد مع ما ظهر لهم في تأويل النبي ﷺ لرؤياه بأن جماعة من صحابته سيقتلون والصحابة يعلمون أن رؤيا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حق، فلم يكن ذلك مثبطًا لهم عن الخروج، بل كان بضد ذلك حافزًا قويًّا لهم على الخروج للجهاد؛ لأن الشهادة في سبيل الله تعالى هي أسمى أمانيهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٧٥].

١٠ ـ الحزم في القرارات المهمة:

يقول الحميدي: «في هذا الخبر موقف حازم قوي لرسول الله ﷺ حيث قال: «**لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ**»، فالمشورة وتبادل الرأي قبل العزم الأخير الذي يصل إلى حد التصميم والذي تمثل في هذا الموقف بلبس النبي ﷺ آلة الحرب واستعداده لذلك، وفي هذا درس بليغ للقادة ليجتنبوا حياة التردد الذي يفضي إلى الشقاق وفتور الحماس، وإذا وقع الشقاق ضاع أهم عامل من عوامل القوة وهو اجتماع الكلمة، وإذا فتر الحماس ضعف مستوى الأداء وبذل الطاقة.

وهذان الأمران ـ الشورى والحزم ـ بينهما تناقض في الظاهر حيث إن أحدهما يأخذ جانب اللين والآخر يأخذ جانب الشدة، ولكن الأمر ليس كذلك لاختلاف الحالين في الأمرين، فاللين كان سائغًا في مجال الشورى لاستخراج أراء أهل الرأي ثم التوصل إلى أفضلها، والشدة أصبحت سائغة بعد اتخاذ القرار لضمان وحدة الجماعة والحفاظ على معنويات الأمة في أرقى مستوياتها».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٧٦].

١١ ـ لا يجب التردد في القرار:

يقول د/ العمري: «ومن الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى لو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة، ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩] لتعتاد على ممارسة الشورى، وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم ﷺ علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة، وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها، ويغرس الفوضى بين الأتباع». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٣٨٠].

ويقول أ/ عبَّاد: «وما فعله النبي ﷺ من رفضه لرأي الصحابة رضي الله عنهم بالبقاء في المدينة بعد أن لبس لأمته درس للجماعة المسلمة ومن يقودها، فهناك مواقف معينة لا يجب على القائد أن يتراجع في القرار الذي اتفق عليه، فمثل هذا الموقف لو تراجع النبي ﷺ عما عزم عليه بعدما وافق على رأي الأغلبية ولبس درعه وأخذ سلاحه، فقد يتولد في النفوس أن الرجوع جاء نتيجة الضعف والاضطراب في الإرادة وهذا

ينبع من الخوف والحذر، وكل ذلك قد يوهن من نفوس الصف؛ ولذلك كان رد النبي ﷺ بحزم وعزم: «**لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ**»، وأكد القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٣٧-٣٨].

١٢ ـ ما يُستفاد من استشارة النبي ﷺ [غزوة أُحد لأبي فارس ٣٢-٣٤]:

(١) إن الاجتماع الذي عقده رسول الله ﷺ بمثابة مجلس عسكري تمت فيه مداولات، وطُرحت فيه آراء متباينة كل رأي له ما يؤيده وحجته، ثم انتهت المداولات إلى اتخاذ الرأي المناسب.

ويؤخذ من هذا أن الأصل قبل كل معركة أن يجتمع العسكريون المتخصصون قبل اتخاذ القرار العسكري، يدرسون احتمالات الموقف المتوقعة دراسة مستفيضة، ويتداولون الآراء حولها والحلول لها، ثم يخرجون بالقرار العسكري المناسب.

(٢) إن الشورى في هذا الدين في غاية الأهمية، يدلك على هذا مواظبة الرسول ﷺ عليها، والقرآن الكريم ينطق بوجوبها قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وإذا كان الله ﷻ قد أمر رسوله ﷺ بالشورى وألا ينفرد برأي دونهم وأوجب عليه ذلك، فالشورى في حق غيره ﷺ آكد وأوجب.

(٣) رأي الأكثرية في الشورى ملزم للأقلية وإن كان معهم القائد أو رئيس الدولة، وهكذا رأينا رسول الله ﷺ يأخذ برأي الأكثرية ويقدمه على رأيه.

روى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ العَزْمِ في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؟ فَقَالَ: «**مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ، ثُمَّ اتِّبَاعُهُمْ**». [تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٠].

(٤) إن رأي عبد الله بن أُبي بن سلول الذي وافق رأي رسول الله ﷺ لم يرد به مصلحة المسلمين ولا الخير لهم، بل «يبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية؛ بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه ـ لأول مرة ـ أمام المسلمين، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعاتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم».

[الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٢٧٩].

ولعل رأيه أيضًا كان يرجو به أن يخدم قريشًا فتتمكن من اقتحام المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، ويقوم هو بإعانة المشركين من الداخل، بإثارة الفتن والطعن في الظهور من الخلف غدرًا وغيلة، فيحدث بلبلة وفتنة في صفوف المسلمين، ويسهل الهجوم في هذه الحالة أمام المشركين.

(٥) إن موقف الرسول ﷺ في الخروج إلى القتال وعزمه على ذلك مع عرض الشباب عليه العودة، وترك الأمر له قد وضع أساس النظام في الشورى، وهو إن للشورى وقتًا يطرح الناس فيه آراءهم وحججهم، وتقلب وجهات النظر ثم تناقش الأدلة والآراء وتمحص، ثم تخرج الجماعة برأي هو رأي الأغلبية، وهذا الرأي ينبغي أن يُحترم، وألا يتردد الأمير في تنفيذه وإن خالف رأيه، ولا ينقض هذا الرأي لهوى أو لغاية حتى وإن كان هوى نبي أو رسول وإن كان هواه وغايته لا يتطرق إليهما الشك، فالمجاملة هنا لا تصلح.

وهذا درس للأمة الإسلامية ينبغي أن تحفظه بعد رسول الله ﷺ، فإذا رأت الأمة رأيًا متمثلًا بأغلبيتها أو جميعها فعليها أن تنفذه على الفور، ولا تسمح لحاكم أو قائد أن ينقض هذا الرأي، لأنه يخالف هواه».

[غزوة أُحد لأبي فارس ٣٢-٣٤].

١٣ ـ المسلمون أهل سلام:

يقول أ/ كولن: «كان رأي الرسول ﷺ باختصار هو أن يبقوا في المدينة وأن يجعلوا الذراري في الآطام (الحصون المبنية من الحجارة)، فإن دخل عليهم القوم قاتلوهم في الأزقة ورموا من فوق البيوت.

[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٦٧، البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٣].

كان الرسول ﷺ يروم ما يأتي من هذه الإستراتيجية:

أ ـ إن الحرب لم تكن هدفًا من أهداف المسلمين، فهم ممثلون للأمن وللسلام.

ب ـ ولكن إن رام أحد الوقوف أمام نشر الحق فيجب إزالة هذا المانع ولا يترددون في هذا الخصوص عن تقديم أي تضحية.

ج ـ عندما يتعرض المسلمون للهجوم فإنهم سيحاربون دفاعًا عن الدين والعِرض والشرف، وإذا لزم الأمر فإنهم يَقتلون ويُقتلون من أجل هذه الغاية، وهذا من حقوقهم المشروعة.

كان من الضروري إعطاء مثل هذا الانطباع ومثل هذه الصورة عن المسلمين للناس الحيارى حولهم الذين كانوا يراقبون الأحداث الجارية». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٦٨-٦٩].

١٤ ـ الموجِّه لتغلب فكرة الخروج للقاء العدو خارج المدينة:

يقول الشيخ عرجون: «تغلبت فكرة الخروج للقاء العدو خارج المدينة، وكان الموجِّه لهذا التغلب عاملين:

أولهما: موقف الذين فاتتهم بدر فلم يشهدوا معركتها، ولم يشاركوا في جهادها وحُرموا فضلها، وكانت الكثرة الغامرة في هؤلاء من الأحداث الذين لم تتح لهم فرصة شهود أول معركة في الإسلام، التي

أربى فضلها على كل فضل، تلك هي معركة بدر وهذا العامل كان يمكن أن يتلاشى، وتتبدد عناصره، ويذوب وينماع ويذهب تأثيره لولا ظهور العامل الثاني في قوة حازمة وعزيمة ماضية وإرادة قاهرة.

أما العامل الثاني فيتجلَّى في موقف القوة الحازمة التي لا تقف مع الأحداث في تقلباتها، ولكنها تتخطاها مسرعة في عزيمة صارمة، وقوة قاهرة، لا تبالي بالنتائج مع إعطائها وزنها الصحيح في مقاييس الحياة المستقبلة.

ذلك هو موقف النبي ﷺ في المضي إلى المعركة خارج المدينة على ما في جنباته من آلام قاسية، كان النبي ﷺ وحده هو الذي يقرأ أسطره في صفحات الغيب من لوح الأقدار.

وهنا يلمع بصيص من النور في قلبي رجلين من سادة الأنصار، كانا عند إسلامها مشرق شمس لهداية الإيمان، ذانك العظيمان هما سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، فيقولان للذين استأثرتهم عواطف الشباب واستفزَّهم التطلع إلى البطولة: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج وقلتم له ما قلتم، والوحي ينزل عليه من السماء فردُّوا الأمر إليه، فخرج عليهم ﷺ وقد لبس لأمته، وتهيأ بأداة الحرب، وظاهَرَ بين دِرْعين، فندم الذين كانوا يرون الخروج، وقالوا له ﷺ: **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُخَالِفَكَ فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ**، فرد عليهم ﷺ بقوله: «**لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ**».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٥٤-٥٥٥].

١٥ ـ وجهة النظر في كلٍّ من الرأيين:

يقول أ/ خلف الله: «أما الرأي الأول وكان أفضل الرأيين فهو مبني على التكتيك الحربي التالي:

(١) إن جيش المشركين كان مكونًا من أحلاف فلم يكن موحَّد العناصر، وعلى ذلك يستحيل عليهم البقاء أمدًا طويلًا في الحصار، والمسألة تصبح مسألة زمن، إذ لابد من نشوب الخلاف بين المتحالفين إن عاجلًا أو آجلًا.

وقد عرف المخالفون لهذا الرأي خطأهم فتلافوه في غزوة الأحزاب إذ أقام المسلمون في المدينة، وحاصرتهم قريش ومن اجتمع معها من العرب، فلم ينالوا خيرًا، بل أقاموا شر مقام وانقلبوا خاسرين وقد تنازعوا وفشلت ريحهم.

(٢) إن مهاجمة المدن المصممة على الدفاع عن كيانها أمر بعيد المنال، ويكبد المهاجمين خسارة فادحة، ويتعذر عليهم الاستيلاء على المدينة طالما استمر العزم على الدفاع عنها، خصوصًا إذا تشابه السلاح عند المدافعين والمهاجمين وهو في غزوة أُحد كان متشابهًا.

وترجع الصعوبة في مهاجمة المدن في مثل هذه الحالات إلى عدة عوامل منها أن المدافعين يكونون بين أهليهم فيستقتلون في سبيل الدفاع عن أبنائهم والذود عن أعراضهم، وتتضاعف القوات المدافعة إذ

تنضم إليها عناصر جديدة لا يمكنها أن تنضم إلى الجيش في الميدان، هذه العناصر كالنساء والذين يقدرون على الإيذاء من الأبناء، هذا فضلًا عن تمكين المدافعين من استخدام أسلحة فعالة تفقد فاعليتها في ميدان القتال كالأحجار والأدوات، فهذه وإن كانت تصيب في الميدان إلا أنها لا تحسم المعركة، أما بين المنازل والطرقات فإنها شديدة المفعول، خصوصًا وأن المدافعين يكونون مُحصنين في منازلهم بينما يكون العدو مكشوفًا لهم قريب المنال، أضف إلى ذلك كله تعدد المعارك في جهات المدينة كلها وعدم رؤية الميدان وهذا مما يضعف الروح المعنوية عند المهاجِمين.

أما الرأي الثاني فيمكن القول أنه مبني على الاعتبارات التالية:

(١) كان الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة على الدفاع عن رسول الله ﷺ فكان أغلبهم يرى أن المكثَ داخل المدينة تقاعسٌ منهم عن نصرة رسول الله ﷺ.

(٢) كانت الأقلية من المهاجرين ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة ومهاجمة قريش وصدها عن زرع الأنصار وسرحهم.

(٣) كان الذين فاتتهم غزوة بدر يتحرقون إلى الاستشهاد في سبيل الله تعالى.

(٤) وأخيرًا كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمسلمين في المدينة ظفرًا يجب ألا تحلم به، وظنوا أن هذا الحصار سيطول فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤونة عنهم.

في هذه المؤتمرات كان رسول الله ﷺ يدرب المسلمين على طرق معالجة مشاكلهم وعلى كيفية تعميم الخطط العسكرية، وقد وعى أبطال الإسلام هذه الدروس وأتقنوها فخرج منهم أبطال أذلوا أكبر إمبراطوريتين في العالم: الفارسية والرومانية، وحققوا ما لم يحققه قائد في التاريخ من براعة في رسم الخطط الحربية وقدرة على دحر الجيوش الضخمة في ميادين القتال، كما برعوا في التنسيق والتنظيم وفي تأسيس الدولة». [**غزوة أُحد لخلف الله ٥١-٥٢، القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٣٧٢-٣٧٥**].

ويقول د/ أبو فارس: «لا شك أن النبي ﷺ قد بنى رأيه ومن معه على ضوء ما لديه من معلومات دقيقة عن جيش المشركين من حيث العدد والعُدة، فهم متفوقون على المسلمين عددًا وسلاحًا، والبقاء في المدينة واتخاذ موقف الدفاع يعوض على المسلمين ما يتفوق به عدوهم عليهم.

فحينما تكون قوة العدو المهاجم أضعاف قوة عدوه، فإن اتخاذ موقف الدفاع يكون أقوى وأجدى؛ ذلك لأن المعتصم والممتنع ببلده يكون كاشفًا لعدوه المهاجم، ومن ثم يستطيع أن يسدد له الضربات القوية، دون أن ينال عدوه منه شيئًا وإن كان كثير العدد كثير السلاح، فكل شيء يقف معه، طبيعة الأرض وتضاريسها التي يعرفها أبناؤها ويجهلها أعداؤها، والصبيان يعاونون الرجال على القتال،

والنساء تقوم في المعركة بنشاط فعَّال، فالجميع يقاتلهم على أفواه الأزقة ومنعطفات الطرق ويفاجؤونهم بالموت الزؤام.

والمقاتل حين يرى عدوه قد جاء يعتدي عليه ويؤذيه في نفسه وماله وعرضه يقبل على القتال بنفس قوية، وعزيمة صادقة، ويقاتل بكل ما أوتي من قوة، إنه يدافع عن نفسه وعن وجوده.

ولقد صدَّق هذا الرأي وصوَّبه موقفُ المسلمين في غزوة الخندق إذ أقبل الأحزاب من كل حدب وصوب وكانوا أضعاف المسلمين في عددهم وعدتهم، ومع هذا فلم ينالوا من المسلمين شيئًا لما استقروا في المدينة، فعادوا إلى مكة خائبين.

أما موقف الصحابة الذين رأوا الخروج من المدينة لقتال المشركين فرأيهم مبني على هدف وجيه، ومقبول في علم الإستراتيجية العسكرية، والتخطيط التعبوي، إنهم يريدون أن يتحَدَّوْا قريشًا، ويُضعفوا معنويات مقاتليها على القتال، فلا تطمع بهم، ولا تتجرأ على قتالهم.

وموقف الدفاع من شأنه أن يجرئ الخصم المهاجم ويقوي معنوياته، فالهجوم يواجه بهجوم معاكس، والتحدي يواجه بالتحدي، وهذا من شأنه أن يُضعف معنويات العدو، هذا هو هدفهم قد عبَّروا عنه بصراحة ووضوح، فقد قالوا: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنَّا وضعفنا).

[ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٦، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ٢٢-٢٣].

أما بالنسبة لعدد المشركين وكثرتهم فيقابله الروح المعنوية العالية النابعة من الإيمان العميق في النفوس الذي يجعلهم يتغلبون على عدوهم؛ لأنهم إنما يحاربون عدوهم بهذا الدين والإيمان الذي أكرمهم الله به، وما كانوا يومًا يعتمدون على كثرة عددهم في قتال.

وقد صدَّق هذا الموقف غزوةُ بدر الكبرى إذ لم يكن فيها وزن لكثرة المشركين، بل رجحت كفة الإيمان الذي كان في صدور الرجال الذين خاضوا المعركة، وكانوا جياعًا وعراة وقلة، فجندلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين». [غزوة أُحد لأبي فارس ٣٠-٣٢].

١٦ ـ خُطة القتال:

يقول أ/ فتح الباب: «وكذلك جمع النبي ﷺ أهل الرأي من المسلمين وأعلنهم بالنبأ الذي تحقق منه، ودارت مباحثات ومناقشات حول أسلوب العمل، أو بعبارة أخرى حول خطة الحرب.

أما محمد ﷺ فكان رأيه أن يتحصن المسلمون بالمدينة فإذا ما حاولت قريش اقتحامها كان أهلها أقدر على صدهم ورد كيدهم في نحورهم وردهم على أعقابهم خاسئين، ورأى عبد الله بن أبي بن سلول رأيَ النبي ﷺ، وقال: «**يَا رَسُولَ الله، كُنَّا نُقَاتِلُ فِي الجَاهِلِيَّةِ فِيهَا، وَنَجْعَلُ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي هَذِهِ الصَّيَاصِي، وَنَجْعَلُ مَعَهُمْ الحِجَارَةَ، وَاللهِ لَرُبَّمَا مَكَثَ الوِلدَانُ شَهْرًا يَنْقُلُونَ الحِجَارَةَ إِعْدَادًا لِعَدُوِّنَا، وَنُشَبِّكُ المَدِينَةَ**

بِالبُنْيَانِ فَتَكُونُ كَالحِصْنِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَتَرْمِي المَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ مِنْ فَوْقِ الصَّيَاصِيِّ وَالآطَامِ، وَنُقَاتِلُ بِأَسْيَافِنَا فِي السِّكَكِ، يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مَدِينَتَنَا عَذْرَاءُ مَا فُضَّتْ عَلَيْنَا قَطُّ، وَمَا خَرَجْنَا إِلَى عَدُوٍّ قَطُّ إِلَّا أَصَابَ مِنَّا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا قَطُّ إِلَّا أَصَبْنَاهُ، فَدَعْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُمْ إِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْبِسٍ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ مَغْلُوبِينَ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، يَا رَسُولَ اللهِ، أَطِعْنِي فِي هَذَا الأَمْرِ، وَاعْلَمْ أَنِّي وَرِثْتُ هَذَا الرَّأْيَ مِنْ أَكَابِرِ قَوْمِي وَأَهْلِ الرَّأْيِ مِنْهُمْ، فَهُمْ كَانُوا أَهْلَ الحَرْبِ وَالتَّجْرِبَةِ».

وشارك ابن أبي في رأيه الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، بيد أن بعض فتيان المسلمين ورجالهم رأوا الخروج لملاقاة العدو حيث نزل، وقال قائل منهم: «**يَا رَسُولَ اللهِ لا أُحِبُّ أَنْ تَرْجِعَ قُرَيْشٌ إِلَى قَوْمِهَا فَيَقُولُونَ: حَصَرْنَا مُحَمَّدًا فِي صَيَاصِيِّ يَثْرِبَ وَآطَامِهَا! فَيَكُونُ هَذَا جُرْأَةً لِقُرَيْشٍ وَقَدْ وَطِؤُوا سَعَفَنَا، فَإِذَا لَمْ نَذُبَّ عَنْ عِرْضِنَا لَمْ نَزْرَعْ، وَقَدْ كُنَّا يَا رَسُولَ اللهِ فِي جَاهِلِيَّتِنَا وَالعَرَبُ يَأْتُونَنَا، وَلا يَطْمَعُونَ بِهَذَا مِنَّا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ بِأَسْيَافِنَا حَتَّى نَذُبَّهُمْ عَنَّا، فَنَحْنُ اليَوْمَ أَحَقُّ إِذْ أَيَّدَنَا اللهُ بِكَ، وَعَرَفْنَا مَصِيرَنَا، لا نَحْصُرُ أَنْفُسَنَا فِي بُيُوتِنَا**».

وقال أحدهم: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ قُرَيْشًا مَكَثَتْ حَوْلًا تَجْمَعُ الجُمُوعَ وَتَسْتَجْلِبُ العَرَبَ فِي بَوَادِيهَا وَمَنْ تَبِعَهَا مِنْ أَحَابِيشِهَا، ثُمَّ جَاؤُونَا قَدْ قَادُوا الخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ حَتَّى نَزَلُوا بِسَاحَتِنَا فَيَحْصُرُونَنَا فِي بُيُوتِنَا وَصَيَاصِينَا، ثُمَّ يَرْجِعُونَ وَافِرِينَ لَمْ يُكْلَمُوا، فَيُجَرِّئُهُمْ ذَلِكَ عَلَيْنَا حَتَّى يَشُنُّوا الغَارَاتِ عَلَيْنَا، وَيُصِيبُوا أَطْرَافَنَا، وَيَضَعُوا العُيُونَ وَالأَرْصَادَ عَلَيْنَا، مَعَ مَا قَدْ صَنَعُوا بِحُرُوثِنَا، وَيَجْتَرِئُ عَلَيْنَا العَرَبُ حَوْلَنَا حَتَّى يَطْمَعُوا فِينَا إِذَا رَأَوْنَا لَمْ نَخْرُجْ إِلَيْهِمْ فَنَذُبَّهُمْ عَنْ جِوَارِنَا، وَعَسَى اللهُ أَنْ يُظَفِّرَنَا بِهِمْ فَتِلْكَ عَادَةُ اللهِ عِنْدَنَا، أَوْ تَكُونَ الأُخْرَى فَهِيَ الشَّهَادَةُ».

وتتابع حديث الإيمان والشجاعة والفداء، فإذا هم انتصروا، فذلك ما أرادوا، وإن لم ينتصروا فذلك هو الاستشهاد والجنة التي أعدت للمتقين، وبدا واضحًا أن رأي الكثرة هو الخروج من المدينة للقتال، وليس التحصن فيها بما رأى الرسول ﷺ وأكابر الصحابة، وهنا قال الرسول ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الهَزِيمَةَ**»، فأبوا مع ذلك إلا الخروج، فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم، فصلى بالناس إذ كان اليوم يوم جمعة، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا.

ذلك أن القائد الأعظم ﷺ أدرك بثاقب فكره أن الصبر هو ألزم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، ولا سيما في مثل هذه الموقعة التي لا تكافؤ فيها بين الجانبين، فما زال المسلمون قلة إذا قيسوا بمشركي مكة وعملائهم وعبيدهم، وما زالوا أقل منهم عدة وسلاحًا». [القيم الخلقية لفتح الباب ٦٥ – ٦٦].

١٧ ـ تصويب خطأ حول الأكثرية والأقلية:

يقول د/ أبو فارس: «يرى السيد محمد لطفي جمعه في كتابه: (ثورة الإسلام وبطل الأنبياء) أن الأغلبية كانت تريد البقاء في المدينة، وأن قِلَّة من الشباب المتحمسين هي التي رأت الخروج وأرغمت هذه القلة الكثرة على الخروج، وورطتها فيه، وكانت هذه الفئة بقيادة حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

فقد جاء في كتابه: (كانت الأغلبية في جانب البقاء في المدينة، ولكن طائفة من الشباب التي تغلي الدماء في عروقها أرادت لقاء العدو، أظهرت رغبة في الخروج لإحراز المجد أو لمجرد حب الحركة، وربما تغلبت الشبيبة في الحياة العامة على الكهول، وفازت حرارة الفتوة على الآراء الناضجة، وقد يحدث كثيرًا، فيرغم الرجال على طاعة الشباب والانقياد لهم، ويتورطون وهم يعلمون نتيجة التساهل للشباب..

فكانت أقلية متحمسة قد غلبت كثرة هادئة مفكرة، فإن هذه الأقلية التي صار على رأسها حمزة بن عبد المطلب ﷺ لقضاءٍ سبق في علم الله ما زالت برسول الله ﷺ حتى وافق على الخروج وهو كاره).

[ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ٩٤٠-٩٤١ ـ ط عالم الكتب ـ القاهرة ٢٠٠٤م].

هذا الكلام لنا عليه الملاحظات التالية:

(١) أن القول بأن الأغلبية كانت في جانب البقاء في المدينة دعوى تحتاج إلى برهان، بل البرهان يقوم على نقيض ما ادعى به الكاتب، حيث يذكر لنا كُتاب السير أن الأغلبية من الصحابة قد كانت تريد الخروج إلى العدو وقتاله، ولا تريد البقاء في المدينة.

جاء في السيرة النبوية لابن كثير: فقال الذين لم يشهدوا بدرًا: **كُنَّا نَتَمَنَّى هَذَا اليَوْمَ وَنَدْعُو اللهَ، قَدْ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْنَا وَقَرُبَ المَسِيرُ**، وَأَبَى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا الخُرُوجَ إِلَى العَدُوِّ، وَلَمْ يَتَنَاهَوْا إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ... وَقَالَ رِجَالٌ قَوْلًا صَدَقُوا بِهِ وَمَضَوْا عَلَيْهِ، مِنْهُمْ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: **وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ لَنُجَالِدَنَّهُمْ**». **[السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٤].**

من هذا النص الذي ساقه ابن كثير في سيرته يتبين لنا أن الذين أرادوا الخروج هم الذين لم يشهدوا بدرًا، وهؤلاء وحدهم يشكلون الأغلبية، فكيف إذا انضم إليهم كثير من أهل بدر كسعد بن عبادة، وحمزة بن عبد المطلب، والنعمان بن مالك، وأبو سعد خيثمة بن الحارث). **[ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٤، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٠، وزاد المعاد ٣/ ٢٠٨، وحياة محمد ﷺ ٣٠٢].**

هذا وقد يتوهم من عبارة السيرة الحلبية التالية وغيره، أن الأغلبية كانت ترى البقاء في المدينة، وهذه العبارة هي: (وكان ذلك ـ البقاء في المدينة ـ رأي أكابر المهاجرين والأنصار). **[السيرة الحلبية ٢/ ٤٩٠].**

هذا الوهم يُرد بأن العبارة تفيد أن شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار قد وافقوه ﷺ على رأيه وهو البقاء في المدينة، وهؤلاء لا يُكونون الأكثرية في المجتمع الإسلامي وفي كل مجتمع إنساني، إذ الشباب

في أي مجتمع يُكونون أغلبيته، وقد كان الشباب يريدون الخروج لا البقاء، ومعهم بعض أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار.

ومن الجدير بالذكر أن الجمهور الأعظم من كُتاب السيرة المُحْدَثين قد فهموا من دراستهم للسيرة النبوية أن الأغلبية من الصحابة كانت تريد الخروج إلى المشركين وقتالهم.

[الرحيق المختوم ٢٨٠، وحياة محمد ﷺ ٣٠٢، والعبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ٣٤٥، والرسول العربي ﷺ ١٥١، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٢/ ٣٢٥، وفقه السيرة للبوطي ٢٣٦].

هذا وقد جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ما يؤكد أن الأغلبية من الناس كانت تريد الخروج، إذ لما أمرهم الرسول ﷺ بالتهيؤ فرح الناس. **[شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ٢٣]**.

(٢) وقول الكاتب بأن الذين رأوا الخروج شباب قليلون رغبوا فيه لإحراز المجد أو لمجرد الحركة، فهذا لا نوافق الكاتب عليه، ونشجبه؛ لأنه لا يليق هذا بصحابة رسول الله ﷺ، ويُفهم منه بأنه طعن في صحابة رسول الله ﷺ، وكنا نرغب من كل قلوبنا ألا يسقط الكاتب هذه السقطة الشنيعة، وكنا نود من أعماق قلوبنا أن يتأدب عند ذكر صحابة رسول الله ﷺ، ويفكر كثيرًا في كل كلمة يريد أن يتلفظ بها، قد تؤدي إلى اتهام الصحابة في سرائرهم.

فهل يعقل أن يقول من عنده أثارة من عقل أو دين أن الشباب من الصحابة خرجوا أو رغبوا في الخروج لإحراز المجد أو لمجرد حب الحركة.

إن هؤلاء الشباب الذين آمنوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وباعوا أنفسهم لله رب العالمين، لا يعبثون، ولا يتصرفون تصرف العابثين، إنهم خرجوا دفاعًا عن الإسلام وأهله، وإظهارًا لعزة الإسلام ورغبة فيما عند الله من الثواب العميم والنعيم المقيم في الجنة، وليس لمجرد حب الحركة.

وهذه هي مواقفهم تتكلم بذلك، كما عرضناها في عرض المرحلة الأولى من الغزوة.

(٣) وما زعمه الكاتب ـ غفر الله له ـ من أن الشباب كانوا أقلية متحمسة قد غلبت كثرة هادئة بقيادة حمزة بن عبد المطلب ﷺ وما زالت تضغط على رسول الله ﷺ حتى وافق على الخروج وهو كاره فإزاء هذا نقول:

(أ) إذا كان الشباب قد أرادوا الخروج فهم أكثرية وليسوا أقلية كما زعمت.

(ب) لم يكن الشباب وحدهم يريدون الخروج بل كان معهم نفر من كبار الصحابة، فقد ذكر ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد [٣/ ١٩٣]: (فَبَادَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ فُضَلاءِ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ فَاتَهُ الْخُرُوجُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَشَارُوا عَلَيهِ بِالْخُرُوجِ، وَأَلَحُّوا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ).

(ج) إن الإسلام يقرر أن الإنسان إذا كان بالغًا عاقلًا غير سفيه ولا محجور عليه، رأيه معتبر، ومن حقه أن يُسهم في بناء المجتمع الإسلامي بفكره وماله وجهده ونفسه، ولقد أرسل رسول الله ﷺ أسامة ابن زيد ﷺ قائدًا على المسلمين وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وفي الجيش أبو بكر وعمر وعلي وسائر الصحابة رضوان الله عليهم.

(د) وأن يوصف الشباب من صحابة رسول الله ﷺ بالطيش وعدم التفكير، وأنهم تغلبوا على ضحالة فكرهم وحماستهم على أصحاب الفكر والرأي بقيادة رسول الله ﷺ، وأرغموهم على خلاف ما يعتقدون وهم الأكثرية والشباب أقلية، فهذا لا يليق بصحابة رسول الله ﷺ لا سيما أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار.

(هـ) إن الإسلام يرفض بحزم أن تُسَيِّر فئةٌ قليلة من الناس مهما كانت أمرَ الأمة، وتستبد بالأمر، وتضغط بقوة السلاح أو بالحماس لتلبية رغباتها وإن كانت تجر الويل والهلاك على هذه الأمة، ويهمل رأي العقلاء وهم الأكثرية من الناس.

(و) إن وصف الشباب بقلة الفكر وعدم الرؤية وأنهم على هذه الحالة قد حملوا رسول الله ﷺ وكبار الصحابة وأكثريتهم على الخطأ، اتهام ينبو عن الذوق.

(ز) إن الشباب كانوا يريدون الخروج، وهذا رأيهم، ومن حقهم وحق كل مسلم أن يعبر عن رأيه بحرية، ويؤيد رأيه بحججه وبراهينه حتى يقنع غيره أو يقتنع من غيره بقوة حجته ودليله، وبعد ذلك يخضع لرأي الأغلبية فإنه أقرب إلى الصواب في الغالب.

وهؤلاء الشباب لم يكونوا كما وصفهم الكاتب غفر الله له، بضعف الرأي والحجة، بل كانوا ذوي عقول متفتحة وأفكار سديدة، أقنعت الآخرين بها ولم ترهبهم، ولم تغلبهم على أمرهم.

(ح) إن الرسول ﷺ قد علَّم هذه الأمة ورباها أن تكون حرة في تفكيرها واتخاذ قراراتها، ونَفث في روعها أنه لا يملك أحد من البشر مهما كان أن يستبد بالأمر دونها، وأَمرها بالتمرد على المستبدين الذين لا يستشيرون ولا يلتزمون بإرادة الأمة.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد ربى هذه الأمة على هذا المبدأ، وعمل بمقتضاه في مواطن كثيرة، فلا يُعقل أن يقبل رسول الله ﷺ ومعه أكثرية الصحابة وجمهور الأمة أن يخضع لرغبة فئة قليلة متحمسة من المسلمين خرجت ـ كما يزعم الكاتب ـ لطلب مجد أو لمجرد حب الحركة.

(ط) إن هذا الذي ذهب إليه الكاتب فيه إساءة كبيرة للرسول ﷺ وإساءة للمسلمين جميعًا، إذ فيه اتهام بالجبن والمجاملة وغلبة ضحالة الفكر على عمقه وصوابه.

وما كان الأمر كما زعم الكاتب أن الرسول ﷺ ومعه الكثرة من المسلمين قد غُلبوا على أمرهم وأُكرهوا على الخروج من فئة قليلة متهورة متحمسة؛ لأن الرسول ﷺ كان باستطاعته أن لا يخرج من المدينة، وقد عَرَضوا عليه ذلك بعد أن لبس لأمته، فأبى ﷺ وقال: «**لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ**».

ولكنه ﷺ التزم برأي الأغلبية في وقت الشورى، وعلَّم الأمة على الالتزام به، وقد ذهب وقت الشورى وجاء وقت العمل والتنفيذ.

وأخيرًا كنا نتمنى للكاتب ألا يعثر هذه العثرة، ولا يزل هذه الزلة، ولا يكبو هذه الكبوة المهلكة، ونسأل الله لنا وله التوبة والمغفرة والرجوع عما ذهب إليه وأساء فيه». [**غزوة أُحد لأبي فارس ٢٤-٣٠**].

ويقول د/ الصاعدي والمحمدي: «هناك من علق على قضية طلب الشباب وبعض الصحابة الكبار من النبي ﷺ الخروج للقتال خارج مساكن المدينة ـ لا خارج المدينة ـ فيضعون ترتبات المعركة على رأي هؤلاء الشباب الذين تحمسوا للخروج، فكان ما كان من إصابة المسلمين بالجراحات، وإصابة رسول الله ﷺ، وقتل لكثير من الصحابة رضي الله عنهم والتمثيل بهم... إلخ.

ونقول: ليس هناك نص صريح ولا مفهوم واضح يدلنا ويسوقنا إلى عتاب فكرة أولئك الشباب الذين تحمسوا للخروج، فكون النبي ﷺ أحب المكث في المدينة وقتالهم فيها، فهذا كان مجرد رأي للنبي ﷺ، وكان رأيًا سديدًا، ولكنه لم يكن وحيًا، يأمرهم به، وإلا لما كان لأحد من الصحابة أن يخالف أمره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد دلتنا عشرات الأحاديث الصحيحة ـ والتي لا يتسع المقام للخوض والتفصيل فيها ـ على أن السمع والطاعة كان نهج الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ، وأما ما سمح فيه رسول الله ﷺ من إلقاء الكلمة وإبداء الرأي فهذا لا يُسمى تحمسًا ولا استعجالًا ولا مخالفة.

لقد عرف الجميع أن النصر في أول المعركة كان للمسلمين، حتى أن قريشاً بخيلها ورجالها ولت مدبرة، وهرب النساء يتسلقن أحدًا فرارًا من سيوف أُسْد الله... فغنم المسلمون الغنائم الكثيرة التي خلفهم المشركون خلفهم، لقد كان النصر حليف المسلمين حتى حصل ما حصل من الرماة.

فجاءت الآيات تترى متعاقبة معاتبة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ وأمر قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عن الجميع، فأين الآيات والأحاديث بمنطوقها ومفهومها التي دلت على عتاب الذين أشاروا بالخروج؟!». [**أحد: الآثار، المعركة، التحقيقات للصاعدي والمحمدي ص ٦٠-٦١**].

١٨ ـ الثبات:

قال الواقدي: «وَخَرَجَ سَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ ﷺ يَوْمَ الجُمُعَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَدْنَى العِرْضِ إِذَا طَلِيعَةُ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَةُ أَفْرَاسٍ فَرَكَضُوا فِي أَثَرِهِ فَوَقَفَ لَهُمْ عَلَى نَشَزٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَرَاشَقَهُمْ بِالنَّبْلِ مَرَّةً وَبِالحِجَارَةِ مَرَّةً حَتَّى انْكَشَفُوا عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّوْا جَاءَ إِلَى مَزْرَعَتِهِ بِأَدْنَى العِرْضِ، فَاسْتَخْرَجَ سَيْفًا كَانَ لَهُ وَدِرْعَ حَدِيدٍ كَانَا دُفِنَا فِي نَاحِيَةِ المَزْرَعَةِ فَخَرَجَ بِهِمَا يَعْدُو حَتَّى أَتَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَخَبَّرَ قَوْمَهُ بِمَا لَقِيَ مِنْهُمْ». [المغازي للواقدي١/ ٢٠٨].

يقول د/ الحميدي: «هذا الخبر يدل على شجاعة سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري ﷺ وقوة احتماله حيث ثبت أمام عشرة من الفرسان، ولقد أعطى المشركين بذلك درسًا بليغًا في الصبر والثبات، وهذا شاهد على أن الكفار لا يبذلون في الحرب إلا جزءًا يسيرًا من طاقتهم؛ لأنهم يهتمون قبل كل شيء بالدفاع عن أنفسهم واستبقاء حياتهم، وأن المؤمن الحق يبذل طاقة كبيرة تعادل طاقة عشرة من الكفار أو أكثر». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٦٨].

١٩ ـ التعبئة الروحية:

يقول أ/ فتح الباب: «وكان سبيل الرسول ﷺ في إعداد المسلمين للمعركة الوشيكة المرتقبة هي رفع روحهم المعنوية وشد عزائمهم من طريق حسن رعايتهم، فتلك هي الطريقة المثلى لتوحيد صفوفهم والتفافهم حوله، وتسابقهم إلى الجهاد في سبيل الله.

والمناضل الحق هو الذي يدرك أن عوامل الانتصار رهينة بالقوة البشرية ومدى قدرتها على خوض المعارك، والثبات في المواقف والأزمات، وإن هذه القدرة هي صمام الأمن للكيان الروحي والاجتماعي، وهي خط الدفاع الأول عن الهدف الذي يعمل القائد على تحقيقه، وأن النصر لا يتوقف على كثرة العدة والسلاح بقدر ما هو رهين باليد التي تمسك هذا السلاح، والقلب الذي يحركها، فلابد من رعاية أفراد الجماعة المؤمنة حتى لا تشغلها شؤونها الداخلية عن المشكلة الخارجية، وحتى تصلح أحوالها وتطمئن على يومها وغدها فيشتد تماسكها وتقوى وحدتها.

ولقد سلك نبي الأمة الإسلامية الأعظم ورسول الله ﷺ إلى المسلمين أفضل السبل لإنجاز هذه الغاية حين زاد من رابطته بأصحابه من طريق المصاهرة، فتزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ، كما تزوج من عائشة بنت أبي بكر ﷺ من قبل، ومثلما تزوج من حفصة زَوَّجَ ابنته فاطمة من ابن عمه علي ﷺ، وزَوَّجَ عثمانَ بن عفان ﷺ ابنته أم كلثوم بعد أن ماتت أختها رقية ﷺ.

وهكذا جمع الرسول ﷺ حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ﷺ، وهم قادة تلك الجماعة التي آمنت بعقيدة محمد ﷺ وضَحَّت في سبيلها، ولقد كان في رفع الروح المعنوية في أصحاب

الرسول ﷺ بمثابة الدرع الواقي للعقيدة وللمجتمع الإسلامي الناشئ في مواجهة خصومه وأعوانهم والمتآمرين معه». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٦٢-٦٣].

٢٠ ـ الروح المعنوية عند المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «أن القارئ للعديد من كتب السيرة النبوية يجد أن المسلمين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية، يعجز اليراع عن وصفها.

أدلة ذلك:

أولًا: لما استشار النبي ﷺ المسلمين في شأن قتال المشركين طاروا فرحًا لهذا اليوم، وتباروا في التعبير عن سرورهم وحماسهم للقتال.

فقال عبد الله بن جحش ﷺ: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هَؤُلاءِ القَوْمَ نَزَلُوا حَيْثُ تَرَى، وَقَدْ سَأَلتُ اللهَ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي لأُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ نَلْقَى العَدُوَّ غَدًا فَيَقْتُلُونَنِي، وَيُمَثِّلُونَ بِي، فَأَلقَاكَ مَقْتُولًا قَدْ صُنِعَ هَذَا بِي، فَتَقُولَ: فِيمَ صُنِعَ بِكَ هَذَا؟ فَأَقُولَ: فِيكَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أُخْرَى أَنْ تَلِي تَرِكَتِي مِنْ بَعْدِي، فَقَالَ ﷺ: نَعَمْ.** [إمتاع الأسماع ١/ ١٥٥].

وقال عمرو بن الجموح ﷺ بعد أن أقبل على القبلة: **اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي الشَّهَادَةَ وَلا تَرَدَّنِي إِلَى أَهْلِي خَائِبًا.** [عيون الأثر ٢/ ١٧-١٨، وينظر: إمتاع الأسماع ١/ ١٤٦].

وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله أَنَا أَشْهَدُ أَنَّ البَقَرَ المُذَبَّحَ قَتْلَى مِنْ أَصْحَابِكَ، وَأَنِّي مِنْهُمْ، فَلِمَ تَحْرِمُنَا الجَنَّةَ؟ فَوَالَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لأَدْخُلَنَّهَا.**

[شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ٢٣، وأنساب الأشراف ١/ ٣١٥، وإمتاع الأسماع ١/ ١٤٦].

وَقَالَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ: **وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ لا أَطْعَمُ اليَوْمَ طَعَامًا حَتَّى أُجَالِدَهُمْ بِسَيْفِي خَارِجَ المَدِينَةِ.** [شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ٢٣].

وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ أَوْسِ بْنِ عَتِيكٍ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله! نَحْنُ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ، وإنا لَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ البَقَرَ المُذَبَّحَ.** [أنساب الأشراف ١/ ٣١٥].

وقال قائلهم: **هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ: الظَّفَرُ أَوْ الشَّهَادَةُ، وَالله لَا تَطْمَعُ العَرَبُ فِي أَن يَدْخُلَ عَلَيْنَا مَنَازِلَنَا، وَلا يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّا هِبْنَا عَدُوَّنَا فَيَجْتَرِئَ عَلَيْنَا.** [أنساب الأشراف ١/ ٣١٤- ٣١٥].

ثانيًا: شدة فرح الناس لما أمرهم الرسول ﷺ بالخروج. [شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ٢٣].

ثالثًا: التصميم على القتال من الجنود وقائدهم: فلقد عزم النبي ﷺ على القتال بإرادة قوية ونفس لا تعرف التردد والتراجع، فها هو ذا رسول الله ﷺ يعبر عن هذه الإرادة الحديدية والعزيمة الصارمة بقوله ﷺ: «**لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ**».

إنه اختيار المواقف الجريئة والثبات عليها مهما كانت التضحيات وأيًّا كانت النتائج.

وتحدثنا كتب السيرة النبوية عن هذه المعنويات العالية وصورها المتعددة، ومن هذه الصور ما جاء في سيرة ابن هشام وشرح المواهب ما ملخصه: وتنافس الصبيان في الخروج لقتال المشركين، وتدافع الناس، إلا أن رسول الله ﷺ قد رد الصبيان الذين لم يتجاوزوا في أعمارهم خمسة عشر عامًا، وكان قد رد سبعة عشر منهم، ورأينا موقف رافع بن خديج وسمرة بن جندب رضي الله عنهما في عرض الغزوة.

التعبئة المعنوية: وفوق ما كان يتمتع به المسلمون جميعًا من قوة معنوياتهم، وتدافعهم للقتال، وحرصهم عليه، فإن النبي ﷺ وقف فيهم خطيبًا يحرضهم على القتال ويحضهم على الثبات والصبر، ويبشرهم بالنصر إن هم صبروا واتقوا، ويأمرهم بالطاعة». [غزوة أُحد لأبي فارس ٣٧-٤١].

٢١ ـ تكريم الإسلام لأصحاب الأمراض والعاهات:

يقول الشيخ أبو خوات: «وفي اعتراف بما لأصحاب الأمراض والعاهات من حق في الإسلام ينيب النبي ﷺ عن نفسه في زعامة المدينة وإمامة الصلاة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وما أدراك مَنْ ابن أم مكتوم؟ إنه الأعمى الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾[عبس]». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٦٣].

٢٢ ـ حسن اختيار الرجال للمهمات الصعبة:

في بعث الحباب بن المنذر رضي الله عنه لمعرفة جيش المشركين يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر بيان اهتمام النبي ﷺ بمعرفة حجم جيش الكفار ومدى استعدادهم وقوتهم، وهذا أمر ضروري للاستعداد ووضع الخطط المناسبة.

وقوله ﷺ للحباب رضي الله عنه: **(لا تُخْبِرْنِي بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إلا أَنْ تَرَى قِلَّةً)** بيان لأهمية المحافظة على قوة معنوية المجاهدين وارتفاع حماسهم.

وفي هذا الخبر موقفان للحباب بن المنذر رضي الله عنه:

الأول: في شجاعته حيث استطاع أن يدخل في جيش المشركين ويقوم بمهمة تقدير عددهم وعدتهم، وهذه المهمة لا يكفي فيها أن يجول حولهم من بعيد؛ لأن ذلك لا يتيح له فرصة الاطلاع الكافي، والأرقام التي قدمها للنبي ﷺ تدل على أنه قد دخل في جيشهم، وتلك مغامرة جريئة لا يقوم بها إلا من كانوا يجمعون بين الشجاعة والحذر.

والموقف الثاني: في دقة رصده الحربي حيث أفاد عن عددهم وعدد خيولهم وأدراعهم بما يوافق الإحصاءات التي تمت بعد ذلك أو يقاربها، وهذه خبرة حربية عالية، ولقد أحسن النبي ﷺ الاختيار حينما اختار الحباب رضي الله عنه لهذه المهمة.

وأخيرًا موقف جليل وذلك في جواب النبي ﷺ للحباب ﷺ حيث قال: (**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، اللَّهُمَّ بِكَ أَجُولُ وَبِكَ أَصُولُ**)، وهذا يدل على قوة التوكل على الله تعالى حيث لم يذكر في ذلك الموقف الرهيب غير الله جل وعلا، وهذا هو أهم عوامل النصر.

إن عوامل النصر المادية يشترك فيها المؤمنون والكفار، ولكن العامل الوحيد الذي يختص به المؤمنون هو التوكل على الله سبحانه، وبهذا العامل القوي العظيم انتصر رسول الله ﷺ على أعدائه وانتصر المؤمنون من بعده على أعدائهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٦٦-٦٧].

٢٣ ـ التسابق والتنافس في الأعمال الصالحة:

يقول د/ فيض الله: «لئن فرَّ المنافقون في شَوْط من الطريق، خوفًا من القتال، ووراءه الموت، فإن الصحابة أهل الإيمان الحق، واليقين الصادق، سارعوا إلى الموت في هذه الغزوة، راغبين في الشهادة، وعلى سواعد هؤلاء قامت هذه الغزوة، وبدمائهم ارتوى أُحد، ومن أجلهم أحب النبي ﷺ أُحدًا، وأحب أُحدٌ المسلمين المجاهدين، فمِنْ هؤلاء السابقين إلى الشهادة، في يقين ثابت، ورغبة ملحة صالحة:

١ـ خيثمة ﷺ الذي قُتِلَ ابنُه يوم بدر، وكان به مُولعًا، وكان يتشهَّى أن يكون قد قُتل معه شهيدًا، فيرافقه في رفيع الجنات، ففاته ذلك الشرف.

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنُه استُشْهِدَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ بدر: «**يَا رَسُولَ الله، لَقَدْ أَخْطَأَتْنِي وَقْعَةُ بَدْرٍ، وكُنْتُ وَالله عَلَيْهَا حَرِيصًا، حَتَّى سَاهَمْتُ ابنِي فِي الخُرُوجِ، فَخَرَجَ سَهْمُهُ، فَرُزِقَ الشَّهَادَةَ، وَقَدْ رَأَيْتُ البَارِحَةَ ابني فِي النَّوْمِ، فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، يَسْرَحُ فِي ثِمارِ الجَنَّةِ وأَنْهَارِهَا، ويقولُ: الْحَقْ بِنَا تُرافِقْنَا فِي الجَنَّةِ، فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ وَالله يَا رَسُولَ الله، أَصْبَحْتُ مُشْتَاقًا إِلى مُرَافَقَتِهِ فِي الجَنَّةِ، وقَد كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وأحبَبْتُ لِقَاءَ رَبِّي، فَادْعُ اللهَ يَا رَسُولَ الله أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ، وَمُرَافَقَةَ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، فَقُتِلَ بِأُحُدٍ شَهِيدًا**».

[المغازي للواقدي١/ ٢١٢، زاد المعاد لابن القيم٣/ ١٩].

٢ ـ وهذا عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ ﷺ، وَكَانَ رَجُلًا أَعْرَجَ شَدِيدَ العَرَجِ، وكانَ له بَنُونَ أربَعَة شَبَاب، مِثْلَ الأُسْدِ، يَشْهَدُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ المَشَاهِدَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أَرَادُوا حَبْسَهُ، وَقَالُوا لَهُ: **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَذَرَكَ، [جَعَلَ لَكَ رُخْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ وَنَحْنُ نَكْفِيكَ، وَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ]**، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: **يا رسُولَ الله، إِنَ بَنِيَّ هؤلاءِ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَذَا الوَجْهِ، وَالخُرُوجِ مَعَكَ فِيهِ، فَوالله إِنِّي لأَرْجُو أن [أُسْتَشْهدَ] فأطأَ بعَرْجَتِي هذِهِ فِي الجَنَّةِ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ عَذَرَكَ اللهُ فَلا**

جِهَادَ عَلَيْكَ [وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ]، وقال لبنيه: «**ومَا عَلَيْكُم أَلَّا تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللهَ ﷻ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ**»، فخرجَ مَعَ رسولِ الله ﷺ، فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠، زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٢].

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ ﷺ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى أُقْتَلَ أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ**، وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**»، فَقُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًى لَهُمْ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ**»، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمَا وَبِمَوْلَاهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.

[مسند أحمد ٣٧/ ٢٤٧ رقم ٢٢٥٥٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. ومجمع الزوائد في المناقب ٩/ ٥٢٣ رقم ١٥٧٤٦، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير يحيى بن نصر الأنصاري، وهو ثقة].

وأجاب الله دعوة نبيه لعمرو ﷺ، وحقق له رغبته الصادقة، فقُتل يوم أحد شهيدًا.

«وفي هذا الخبر موقف لعمرو بن الجموح ﷺ وذلك في إظهار شوقه الشديد للجهاد في سبيل الله تعالى مع أن الله سبحانه قد عذره في القعود بعرَجه الشديد، ومن كان كذلك فإنه لا يستطيع أن يجاهد بطاقة كاملة، وإن كان الدافع الإيماني لديه قويًّا، ومع كونه مصابًا بهذا العذر ومع كونه قد قدَّم للجهاد بنين أربعة في غاية الشجاعة، فإنه لم يقبل عرض بنيه عليه بالقعود، ورجا الله تعالى أن يطأ بعرجته تلك في الجنة، وذلك بما يرجوه من نيل الشهادة.

ولما ذكر هذا الأمل لرسول الله ﷺ أبان له بأنه ممن عذر الله تعالى ولكنه أشار على بنيه بتمكينه من الخروج لعل الله تعالى أن يحقق له تلك الأمنية الغالية، وقد تحقق له ما رجاه حيث قتل شهيدًا ﷺ.

ومع كونه شديد العرج فإنه قد أبلى في المعركة بلاء حسنًا كما ذكر أبو طلحة، وكان لا يفارقه شعوره بالشوق إلى الجنة حتى استشهد ﷺ». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٢٠].**

٣ ـ وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ﷺ أَخُو بَنِي سَالِمٍ: **يَا رَسُولَ الله أَنَا أَشْهَدُ أَنَّ البَقَرَ المُذَبَّحَ قَتْلَى مِنْ أَصْحَابِكَ، وَأَنِّي مِنْهُمْ، فَلِمَ تَحْرِمُنَا الجَنَّةَ؟ ـ يريد ألا يمنعه من سببها، وهو الجهاد في سبيل الله، وذلك يوم أُحد ـ فَوَالَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لأَدْخُلَنَّهَا**، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بِمَ؟**»، قَالَ: **بِأَنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، وَلا أَفِرُّ يَوْمَ الزَّحْفِ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صَدَقْتَ**»، فَاسْتُشْهِدَ يَوْمَئِذٍ». **[المغازي للواقدي ١/ ٢١١].**

٤ ـ وهذا عبدُ الله بنُ جَحْشٍ ﷺ، وهو من الغزاة المجاهدين، ورأس سرية قبل أُحد تَسَمَّت باسمه، يقول يوم أُحد، مناجيًا ربه ﷻ، مخلصًا من أعماقه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ ألقى العَدُوَّ غَدًا، فَيَقْتُلُونِي، ثُمَّ يَبْقُرُوا بَطْنِي، ويَجْدعُوا أَنْفي، وَيَصْلِمُوا أُذُنِي، ثُمَّ تَسْأَلُنِي: فيمَ ذلِكَ، فَأَقُولُ فيكَ**».

فيقول بعض رواة الحديث عن سعد ﷺ قال: **فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقٌ فِي خَيْطٍ.**

وصدق الله العظيم، وتمت كلمته، إذ قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

هؤلاء الذين روَّوا أُحُدًا بدمائهم الزكية، ومزجوها بتربته الطيبة النقية، وخلَّدوا ببطولاتهم ذلك الجبل الأشم، والعقيدة الشماء، وهذه نماذج البطولة الإسلامية التي تخرجت في مدرسة محمد ﷺ، فأروني ماذا تُخرِّج المدارس والمعاهد التي لا تنهض على صريح الإيمان، في أيامنا؟».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٢٣-١٢٥].

ويقول د/ الحميدي: «وهكذا كانت أمنية عبد الله بن جحش ﷺ أن ينال الشهادة وأن يمثل به الكفار لينال أجر ذلك بعد أن يقارع الأقران الأشداء، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فنال الشهادة على الصورة التي أحبها.

لقد وفقه الله تعالى لهذا الدعاء؛ لأنه سبحانه أراد أن يتخذ منه شهيدًا مع إخوانه الشهداء الأبرار، ووفق سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الدعاء المذكور الذي لم يشتمل على طلب الشهادة؛ لأنه سبحانه أراد منه أن يُعَزَّ الإسلام وأهله وأن يذل الكفر وأهله على يديه، ولقد تأخر أجله حتى فتح الله تعالى به مملكة الفرس، وأعز به دولة الإسلام». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٠٨-١٠٩]**.

٥ ـ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لأَخِيهِ: **خَذْ دِرْعِي يَا أَخِي، قَالَ: أُرِيدُ مِنَ الشَّهَادَةِ مَثْلَ الَّذِي تُرِيدُ، فَتَرَكَاهَا جَمِيعًا. [مجمع الزوائد ٥/ ٥٤٠ كتاب الجهاد (٩٥٣٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وذكر الصالحي أنه رواه أبو نعيم. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٨٧]**.

يقول د/ الحميدي: «وهذا مثل يبين حرص الصحابة ﷺ على الشهادة في سبيل الله تعالى، فقد أعطى عمر ﷺ أخاه زيدًا ﷺ درعه ليَلقى العدو حاسرًا فينال الشهادة، فأجابه زيد ﷺ بأنه هو أيضًا يريد الشهادة.

وقد علم الله تعالى صدق نيتهما في ذلك فمنحهما الشهادة بعد عُمر قضياه في إعلاء كلمة الله تعالى وخدمة المسلمين، حيث استشهد زيد بن الخطاب ﷺ في معركة اليمامة، وساق الله ـ جل وعلا ـ الشهادة لأمير المؤمنين عمر في مسجد رسول الله ﷺ». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٠٦]**.

٢٤ ـ عدم التهاون والتفريط في الأعمال الصالحة:

يقول أ/ عبَّاد: «النبي ﷺ وهو يأتي بذروة سنام الإسلام (الجهاد) ـ الذي لا يَعْدله القيام داخل المسجد دون فتور والصيام دون إفطار حتى يعود المجاهد لبيته ـ نجده يدخل المسجد ليؤدي فرض كفاية فيصلي على الميت ويدعو له، إنها رحمة من القائد ﷺ بأتباعه أحياء وأموات، ولفتة لأفراد الأمة

بعدم التهاون والتفريط في الأعمال الصالحة التي قد يستهين بها البعض ـ لعدم الفرضية كالنوافل والأذكار وفرائض الكفاية وغيرها.

وكان الرسول ﷺ يخشى على أمته تفريطها في أداء تلك الأعمال الصالحة التي تسقط بأداء البعض لها فيبين ثواب عمل كهذا ـ الصلاة على الميت ـ في الحديث الذي رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِهَا وَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ تَبِعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ، كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ مِنْ أَجْرٍ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ**». [مسلم في الجنائز (٩٤٥)].

وما تساقط المتساقطون في طريق الدعوة إلا من تفريطهم في تلك الأمور وتساهلهم في امتثالهم لأمر الله، فشغلتهم جماهيرية العمل عن محاضن تربيتهم، فوقعوا في الحضيض وسقطوا في أول امتحان عزيمة وطاعة وثقة لقيادتهم». [مفاهيم تربوية من غزوة أحد لعبَّاد ٤٤-٤٥].

٢٥ ـ حسن إعداد الناشئة:

يقول الشيخ العلي: «استعرض الرسول ﷺ الشباب يوم خروجه إلى أحد، فرد من استصغره منهم مثل ابن عمر والبراء وغيرهما، وأجاز من رآه مطيقًا منهم مثل رافع بن خديج وسمرة بن جندب، وقيل إنما أجاز رسول الله ﷺ من أجاز لإطاقته، ورد من رد لعدم إطاقته.

والصحيح أنه أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة، ورد من رد لصغره عن سن البلوغ». [صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٠٥].

ويقول د/ الصلابي: «رد النبي ﷺ في معسكره بالشَّيْخَيْن ـ وهما أُطُمان ـ جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك، منهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، بلغ عددهم أربعة عشر صبيًّا [(١)]، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سَمُرَة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مري بن سنان بن ثعلبة ـ عم أبي سعيد الخدري ـ وهو الذي ربى سمرة في حجره يبكي ويقول له: يا أبت، أجاز رسول الله ﷺ رافعًا وردني، وأنا أصرع رافعًا، فرجع زوج أمه هذا إلى النبي ﷺ فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسَمرة فقال لهما: تصارعا، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه كما أجاز رافعًا، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه.

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعًا وسمرة لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما، ورد صغار السن خشية ألا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيُحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين.

---

(١) ذكر صاحب سبل الهدى والرشاد أنهم (سبعة عشر شابًّا، وهم أبناء أربع عشرة سنة؛ لأنه ﷺ لم يرهم بلغوا، وعُرضوا عليه وهم أبناء خمس عشرة، فأجازهم) وذكر أسماءهم . سبل الهدى ٤/ ٢٧٨ .

ونلحظ أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة، ويسعى للشهادة شيبًا وشبانًا، حتى الصبيان يقبلون على الموت ببسالة، ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد، أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة، والترفع عن أمور الدنيا». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١١٢].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مثل جيد على حب الصحابة ﷺ للجهاد، وارتفاع مستواهم التربوي، حيث حببوا الجهاد لأبنائهم فأصبح غلمانهم يتسابقون إلى ميادين الجهاد.

وتتبدى هذه المظاهر المتأصلة في نفوس هؤلاء الغلمان في خروجهم مع جيش المسلمين وكلهم أمل في أن يجيزهم رسول الله ﷺ، وأن يشاركوا في الجهاد، كما تتبدى في إلحاح رافع بن خديج ﷺ على ولي أمره ليُقنع النبي ﷺ بالسماح له بالجهاد بحجة أنه يجيد الرماية، ويشفق على نفسه من رد النبي ﷺ بالرفض فينتصب قائمًا على أصابع قدميه ليبدو طويلًا قد بلغ مبلغ الرجال مخفيًا هذا التطاول بخفيه السابغين اللذين يخفيان عقبيه، ويتم فوزه بإجازة النبي ﷺ إياه.

وتأخذ الحسرة سمرة بن جندب ﷺ الذي رُدَّ مع الغلمان، ويعصف به الشوق إلى الجهاد فيُدْلي بمسوغ آخر للقبول، أَوَلَيس يصرع رافعًا؟ فهو إذًا أقوى منه، وما دام الأمر كذلك فهو أحق منه بالإجازة.

ويهمس بذلك في أذن وليه، فينطلق بها إلى النبي ﷺ فرحًا مسرورًا بظفر ابنه بذلك المسوغ، ويتصارعان بأمر النبي ﷺ ويتم لسمرة ما أراد من تلك الإجازة.

إن فرحة هذين الغلامين وأمثالهما بالمشاركة في الجهاد تفوق كل ما يخطر على بال أقرانهم من أَسْرَى المباهج الدنيوية والأهداف القريبة، وذلك شاهد على ارتفاع مستوى المجتمع الإسلامي آنذاك في المثل السامية والقيم العالية». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ٧٧-٧٨].

ويقول د/ فيض الله: «إن ما يثير الدهشة والإعجاب، أن يتسابق الفتيان، وحديثو العهد بالبلوغ، للانخراط في الجيش المسلم، حبًّا في الجهاد، وهم يعلمون ثمن امتزاجهم بالمقاتلة، ويُقدِّرون جيدًا أنهم لا يشاركون في رحلة ربيعية، أو جولة ترفيهية، ولا ينغمسون في نعيم ماتع، أو متعة ناعمة، ولا يشهدون فرقة موسيقية أو رياضية؛ إنهم يعلمون أنهم يخوضون معركة حربية ضارية، ويواجهون عدوًّا لدودًا عنيدًا، ويعلمون الثمن الباهظ في هذه المواجهات، وهو الدم الزكي، والشباب الفتيُّ، والروح الغالية.

وإن نظرة إلى أجسامهم الرشيقة الناعمة الطرية، وهي تخالط جسوم الرجال، ذوي الأيد والقوة، والعضلات المفتولة، لتوحي بالرجولة المبكرة، والهمم المتصاعدة، والمقاصد الشريفة، التي تتخطى مطالب الشباب، ونزوات المراهقين.

ويدلف النبي ﷺ إلى جيشه، يستعرضه، وينظم صفوفه، ويفجأ بالصغار، يتخذون مواقفهم مع الكبار، فيعزلهم عنهم، ويستبعد أسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، في شيء غير قليل من التقدير والإعجاب.

ويستبعد أيضًا رافع بن خديج، وسمرة بن جندب، وكانا قد بلغا بالسن حينذاك، فيشهد لرافع بعض الصحابة، بأنه يرمي كأحسن ما يكون الرمي، فيجيزه، ويبكي سمرة، في نشيج ونحيب، أن لا يُجاز في الحرب كما يُجاز رافع، وهو ـ عند نفسه وفي الواقع ـ أقوى قوة من رافع، وأشد منه عضُدًا، ويطرحه أرضًا في المصارعة.

ويرى النبي ﷺ فيه صدق الرغبة، وصلاح العزيمة، ونُبل المقصد، فيعود فيجيزه.

أيُّ شباب هذا، وأية تربية مثالية هذه؟ شباب في ميعة الصبا، وغضارة الإهاب، ومقتبل الحياة، يبكي لأنه لا يُؤخذ للقتال، ولا يجنَّد في الجيش المسلم، يبكي وهو يستقبل الحياة؛ ليموت في سبيل الله، فيحيا حياة لا يموت بعدها أبدًا.

إذن ذلك من آثار الإيمان، ومعطيات هذا الدين العظيم، وكلما رسخ الإيمان في القلوب أعطى هذه الثمار اليانعة اليافعة، والقوى الدافعة الغالبة المحركة، وعندما يتحول الإيمان إلى مظاهر وأشكال ورسوم، لا حياة فيها ولا حركة فيها ولا قوة، لا يهب إلا الإخلاد إلى الراحة، وحب الخلود، وإيثار السلامة، والضنُّ بالمال والقدرات، وبكل شيء، فضلًا عن الروح». [صور وعبر لفيض الله ١١٦-١١٧].

ويقول د/ أبو شهبة: «وما كان لنا أن نمر بهذا دون أن نشيد بأثر التربية الإسلامية آنذاك في نفوس الشبان، وأنهم لم يكونوا أقل من الرجال حبًّا للجهاد وتضحية في سبيل العقيدة والمثل الإنسانية العالية، وبهؤلاء الشباب وأمثالهم انتصر الإسلام وعلا على كل الأديان، وكان المسلمون خير أمة أخرجت للناس، وعسى أن يكون لشبابنا في هؤلاء أسوة حسنة». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ١٩٠].

وتحت عنوان (**التربية الإسلامية للشباب**) يقول د/ الزيد: «في الطريق إلى أُحد استعرض الرسول ﷺ الجيش وإذا فيه عدد من الشباب استصغرهم الرسول ﷺ، فردَّهم فلم يفرحوا بردهم، بل تنافسوا في أن يتيح لهم الرسول ﷺ الفرصة للمشاركة في الجهاد، وهذا أثر التربية الإسلامية آنذاك في نفوس الشباب، والتربية على معالي الأمور والبعد عن سفاسفها، فالشباب هم عماد الأمة وهم مستقبلها وهم أحق من اعتنى بتربيته وتوجيهه ورعايته الرعاية الإسلامية الصحيحة». [فقه السيرة للزيد ٤٤٨-٤٤٩].

وتحت عنوان: «**هؤلاء الشباب لماذا يُقدِمون على الموت؟**» يقول أ/ عبَّاد: «لابد للمسلم أن يبحث عن الدافع والسر الذي جعل هؤلاء الشباب صغار السن يقدمون على الموت بل ويصرون عليه أعظم

الإصرار حتى إن أحدهم لا يفرح لأنه لم يُكلف بالجهاد، بل يقف ليعلن رفضه ـ بأدب ـ لرده من الجيش ويقدم الأسباب التي تؤهله لتحمل المسؤولية.

إن الدافع يكمن في هذا الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلوب والجوارح فترتب عليه محبة عظيمة للنبي ﷺ وللجنة، فقدمت النفس عن حب لمناصرة النبي ﷺ، والعكس إذا ضعف الإيمان لانشغال الفرد بهموم نفسه ضعفت المحبة وحل الكسل والتقاعس وتفلت الخير من حوله هنا وهناك وهو سعيد أو غفلان وحينما لا يكلف بشيء يتنفس الصعداء، فعلى أفراد الجماعة المسلمة أن يدركوا ذلك جيدًا حتى لا يتفلتوا من الصف». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٤٨-٤٩].

ويقول د/ أبو فارس: «إن هذا التنافس عند الشباب وهم في عمر الزهور، فيم يتنافسون؟ وماذا يريدون؟

إنهم يتنافسون على الموت ولا يكترثون بهذه الحياة الدنيا، مع أن الشباب غالبًا ما ينزعون إلى اللهو في فترة شبابهم، ولكنهم يتنافسون على الموت، عزفت نفوسهم عن الدنيا والتعلق بها؛ لأن العقيدة الإسلامية التي تغلغلت في شغاف قلوبهم حررتهم من حب الدنيا، واللهث وراء ملذاتها وبهرجها، وربطتهم بالحياة الآخرة التي هي دار مقام حقًّا، وهذه العقيدة حررتهم من الخوف على الأجل وحررتهم من الخوف على الرزق؛ لأنها قد غرست في قلوبهم أن عمر الإنسان محدود لا تنقصه الجرأة والإقدام في القتال، ولا يزيده الجبن والتقاعس لحظة واحدة، وأيقنوا بفضل هذه العقيدة أن الرزق بيد الله، وأن إقدامهم وجرأتهم في القتال لا تنقص من رزقهم حبة خردل، وتقاعسهم عن القتال لا يزيد في رزقهم أو آمالهم شيئًا، وإذا كان الأمر كذلك، فلا نامت أعين الجبناء، ولا كان الجبن ولا كان الجبناء». [غزوة أُحد لأبي فارس ٤٠-٤١].

أطروفة في الرد لصغار الصحابة: يقول الشيخ عرجون: «وموضع الطرافة في هذه الأطروفة التي تمثل جانبًا من جوانب منهج الرسالة في تربية النشء أن الرسول ﷺ أجاز رافعًا ﷺ إذ أجازه دون أقرانه في السن لامتياز حربي امتاز به على غيره منهم، وإنما ردَّ ﷺ من ردَّهم خشية ألا يكون لهم صبر على عض السيوف، ووقع السهام، ووخز الرماح، فيفروا من المعركة إذا مسهم لفح أوارها، فيُحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين، فلما قيل لرسول الله ﷺ: إن رافعًا يحسن الرمي، والرمي هو رأس القوة في الحرب وبه فسَّر رسول الله ﷺ القوة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠]، فقال ﷺ وهو على المنبر: «**أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**».

[مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٨٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١٣)، والدارمي في الجهاد (٢٤٠٤)، وأحمد عن عقبة بن عامر ﷺ (١٦٩٧٩)].

قبل رافعًا وأجازه؛ لأنه بإحسانه الرمي يؤدي للجيش من الأعمال الحربية ما لا يستطيع أن يؤديه ذوو الأسنان العالية؛ لأن الرمي لا يتطلَّب علوًّا في السن لكنه يتطلَّب علمًا ومعرفة ودربة وسواعد قوية.

بَيْد أن حمية الشباب والغَيْرة على مواقف البطولة في ظل الإيمان والجهاد لإعلاء كلمة الله بعثت في نفس سمرة بن جندب ﷺ حماسة عارمة، فرفع أمره إلى رسول الله ﷺ بأنه أوتي قوة بدنية ودُربة في المصارعة يستطيع بها أن يصرع رافعًا، وهذا امتياز تتطلبه الحرب لا ينزل في ميدان المعارك عن مستوى إحسان رافع ﷺ الرمي.

وأراد الرسول ﷺ وهو القائد الأعظم والمعلم المربي أن يُري أصحابه درسًا عمليًّا في تربية النشء؛ ليكون منهجًا لهم في تربية أولادهم لينهضوا في حياتهم أقوياء، ذوي مهارة على مواقف الغلبة في كل ما يفيد المجتمع المسلم في حياته ومستقبله؛ ليعيش بأفراده وجماعاته قويًّا شجاعًا، لا تفارقه الجرأة على اقتحام المخاطر ووقائع الأحداث». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٧١-٥٧٢**].

الرفق بالصغار من أهوال المعارك: يقول ل/ فرج: «بعد أن عسكر رسول الله ﷺ في الشيخين، استعرض جنده، فأجاز كل قادر على الجهاد وحَمْلِ السلاح ومواجهة أحداث المعركة، وردَّ صغار السن، فإنَّ خروج أمثالهم يضر بصالح المعركة، ذلك أن أهوالها وأحداثها أكبر من أن يتحملها هؤلاء، ومن هنا يكون وجودهم عبئًا ضارًّا بصالح المعركة، هذا فوق أن قلب الرسول الرؤوف الرحيم ﷺ أبى أن يتحمل هؤلاء ما هو فوق طاقتهم، وأن تُلقى على عاتقهم مسؤوليات أخطر من سنهم وقدراتهم وطبيعتهم؛ ولهذا فإنه ﷺ ردَّ صغار السن، ولكنه أجاز خروج اثنين منهم حين وجد فيهما قدرة على مواجهة الموقف، وهما رافع بن خديج ﷺ الذي كان يحسن الرماية، وسمرة بن جندب ﷺ الذي كانت له قوة في المصارعة وقدرة عليها». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٤٩**].

ادعاءات محترفي الغزو الفكري في حماسة شباب الصحابة: يقول د/ البوطي: «ومما يجدر التأمل فيه، حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج ﷺ، وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما على خمس عشرة سنة، وكيف جاءا يناشدان رسول الله ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال... وأي قتال؟... قتال قائم على التأهب للموت، لا تجد فيه أي معنى من التعادل بين الفريقين: المسلمون وعددهم لا يزيد على سبعمائة، والمشركون وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل.

والعجيب أيضًا أن يقف بعض محترفي الغزو الفكري على مثل هذه الظاهرة، فيذهبوا في تحليلها إلى أن العرب كانوا أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة، فكانوا ينشؤون في أجوائها وظروفها؛ ولذلك كانوا ينظرون إليها (شيبًا وشبانًا وأطفالًا) نظرة عادية لا تسبب لهم قدرًا بالغًا من المخاوف.

لا ريب أن أرباب هذا التحليل، يغمضون أعينهم في إصرار عجيب، أثناء هذا الكلام عن تخاذل أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول مع ثلاثمائة من أصحابه، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال، والرغبة في الجنوح إلى السلامة والأمن، وعن تخاذل أولئك الآخرين الذين استعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف، وأعرضوا عن نداء رسول الله ﷺ بالخروج للقتال، قائلين: لا تنفروا في الحر ... بل وعن هزيمة المشركين في غزوة بدر، رغم ضخامة عددهم وقلة عدد المسلمين، ووقوع الرعب في أفئدتهم، وهم هم العرب الذين نشأوا في ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها!

من الصعوبة البالغة للمنصف أن يتهرب عما تحكم به البداهة الواضحة، من أن سر هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال، إنما هو الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلب، والذي ترتبت عليه محبة عارمة للرسول ﷺ، فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة، ظهر هذا الإقدام والاستبسال، وحيثما ضعف الإيمان، وضعفت المحبة في القلب انقلب الإقدام إحجامًا، والاستبسال كسلًا».

[فقه السيرة للبوطي ١٩٠-١٩١].

٢٦ ـ ضبط النفس:

«لقد كان في موقف الرسول ﷺ مما فعله المنافق الضرير مربع بن قيظي دروسٌ قيمة عالية في التربية الخلقية وضبط النفس حتى في أحرج الأوقات وأمام أوقح الاستفزازات، دروسٌ عملية يلقيها الرسول الأعظم ﷺ إلى أمته ليرفع بها من شاء ممن يوفقهم الله للسير في حياتهم حسب نهجها.

ففي هذا العمل النبوي النبيل درس عظيم، وخاصة للحكام والقادة والعلماء، الذين يجب عليهم أن يجعلوا الانتقام لأنفسهم، حتى ممن أساء إليهم أو أراد بهم شرًّا، تحت أقدامهم؛ ليتربعوا على القلوب طوعًا واختيارًا ولا يحدثوا أمرًا يجلب البلبلة». [غزوة أحد لباشميل ٨٠، مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٥٥].

وفي موقفه ﷺ من المنخذلين مع عبد الله بن أبي يقول د/ أبو فارس: «إن اختيار النبي ﷺ عدم قتالهم وقتلهم هو عين الحكمة والحنكة والتدبير؛ ذلك لأنه ليس من مصلحة المسلمين في هذا الوقت الحرج، والظرف العصيب أن يوزع جهود المسلمين إلى قتال الفئتين؛ لأن ذلك ينهك قوة المسلمين، حتى وإن انتصروا على المنافقين، فإنهم يخرجون من القتال وقد ضعفت قدرتهم على القتال، ومن الصعوبة بمكان أن يقفوا في وجه جيش المشركين القوي في سلاحه وعدده، حيث يبلغ أربعة أضعاف جيش المسلمين.

ومن جهة ثانية، وهذه في غاية الأهمية والخطورة بالنسبة للرسول ﷺ في مجال الجبهة الداخلية، وعلى المستوى الإعلامي في الخارج، أن المنافقين مسلمون ظاهرًا، وهم محسوبون على المسلمين، فإذا قاتلهم الرسول ﷺ يُشاع أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه، وكثيرٌ من الناس لا يدرك الحقيقة، ويسمع لمروجي الفتنة وقالة السوء.

ومن جهة ثالثة: أن الرسول ﷺ لا يحب سفك الدماء ولا يرغب في إشاعة الفوضى والاضطراب في المجتمع، لا سيما أن الذين يتقاتلون هم الأخوة مع الأخوة والآباء مع الآباء والأقارب مع الأقارب، فينتج عن ذلك مأتم في كل بيت، مما يجعل الناس يحقد بعضهم على بعض، وتشيع الثارات للانتقام، وبعدها يصعب أن تلتئم الجراح، وتطيب النفوس وتهدأ الخواطر». [غزوة أُحد لأبي فارس ٤٦-٤٧].

ويقول أ/ عبَّاد: «وهذا الرأي ـ تَرْك المتمردين وشأنهم الآن ـ هو غاية الحكمة والصواب لأن مقاتلة المتمردين أو المنافقين أو التاركين للصف في تلك الساعات الحرجة فيه من الخطورة على سلامة الجيش الإسلامي أو العمل الدعوي ما لا يخفى على عاقل؛ لأن المقاتلة تجعل الصف بين نارين: نار العدو ونار هؤلاء المتمردين، وهذا يثبت أن النبي القائد الذي سيطر على الأعصاب إزاء هذا التمرد يعد على رأس أمهر القادة العسكريين ـ خبرة ودراية وإدارة وحنكة.

لذلك سَمح الإسلام للقائد بعدم إقامة الحدود في الحروب حتى لا يغوي الشيطان الجندي ويخوفه فيفر إلى العدو هربًا من إقامة الحد؛ لذلك لم يُقِم سعد بن أبي وقاص ﷺ حد شرب الخمر على أبي محجن ﷺ في معركة القادسية ـ سنة ١٤ هـ ـ واكتفى بحبسه». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٥٣-٥٤].

٢٧ ـ موقف المسلمين من المنافقين المنسحبين:

يقول د/ أبو فارس: «ولما رأى المسلمون المنافقين وهم ثلث الجيش قد انخذلوا وتركوا المسلمين، ثارت ثائرة طائفة منهم وانقسموا في موقفهم من المنافقين إلى فئتين:

الفئة الأولى: رأت أن تقاتل المنافقين وتقتلهم لأنهم يستحقون القتل.

الفئة الثانية: وهي تشكل الأكثرية ويقودها رسول الله ﷺ، ويرى ألا يقاتل هؤلاء.

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: لـمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً تَقُولُ نُقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةً تَقُولُ لَا نُقَاتِلُهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [النساء]، وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ [الخَبَثَ] كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ [الحَدِيدِ]**».

[البخاري في المغازي (٤٠٥٠)، وفي التفسير (٤٥٨٩)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٦)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٢٨)، وأحمد عن زيد بن ثابت ﷺ (٢١٥٩٩، ٢١٦٣٠، ٢١٦٣٤، ٢١٦٣٦)].

ومن الجدير بالذكر أن النبي ﷺ لم ير قتالهم ولم يقاتلهم.

أثر انسحاب المنافقين: لما انسحب عبد الله بن أبي بن سلول بالمنافقين، وكانوا ثلث الجيش تأثر قسم من المقاتلين، وضعف حماسهم للقتال، وفكروا بالانسحاب من الميدان، فقد فكر الرجال من بني سلمة، وبني حارثة أن ينسحبوا، ولكن الله سلم، فثبت المقاتلين من القبيلتين، وشرح صدورهم للقتال.

وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران].

وروى الشيخان عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ، وَمَا نُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِل؛ لِقَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. [البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٠٥)].

ولكننا نرى من جهة أخرى أن انسحاب المنافقين كان فيه خير كثير للمسلمين؛ لأن حقيقة المنافقين كفار، وهم يكرهون المؤمنين، ويكرهون الإسلام، ومن ثم فلا فائدة تُرجى من وجودهم في أرض المعركة، بل وجودهم محض ضرر وشر قد خلص الله المسلمين منه.

ويتأكد هذا الشر وهذا الضرر حينما يتضعضع الصف المؤمن في القتال، فسيكون هؤلاء المنافقون معول هدم وتدمير في الجيش الإسلامي، يجوسون خلال المسلمين بالفساد والقتل، بل قد يدفعهم حقدهم الأسود إلى التواطؤ مع الأعداء ضد الإسلام وأهله.

فها هو ذا منافق اسمه الحارث بن سويد بن الصامت يبقى في الجيش الإسلامي في معركة أُحد فماذا فعل؟

لقد استغل انشغال المسلمين في القتال فطعنهم من الخلف إذ قام بقتل المجذر بن ذياد وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة، وفر إلى الكفار، ثم رجع إلى المدينة، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء، ونزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فأخبره أن الحارث بن سويد قدم، فانهض إليه واقتص منه لمن قتل من المسلمين غدرًا يوم أحد، فنهض رسول الله ﷺ إلى قباء في وقت لم يكن يأتيهم فيه، فخرج إليه الأنصار أهل قباء في جماعتهم، ومن جملتهم الحارث بن سويد، فأمر النبي ﷺ عويم بن ساعدة بضرب عنقه، فقال الحارث: لم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: بقتلك المجذر بن ذياد، وقيس بن زيد، فما راجعه الحارث في كلمة، وضرب عنقه. [ينظر: عيون الأثر ٣/ ١٦-١٧، والدرر في اختصار المغازي والسير ١١/ ١٦٠، السيرة النبوية لابن هشام وغيرها من السير فقد ذكرت الحادثة].

وهكذا يتبين لنا أن وجود المنافقين شر قد أراح الله المسلمين منه، بانسحابهم من الجيش الإسلامي قبل القتال». [غزوة أُحد لأبي فارس ٤٥، ٤٨].

٢٨ ـ الرجال الذين يوزنون بالآلاف:

يقول أ/ عبَّاد: «المسلمون لا ينتصرون على أعدائهم بعدد أو عدة، ولا يقوم لهم صرح ولا ينكشف عنهم طغيان إلا بمثل هؤلاء الرجال الأفذاذ من صحابته الذين عرفوا الله حقًّا، وأطاعوا نبيهم صدقًا،

وأحبوا الجنة يقينًا، فالرجل منهم يوزن بألوف، فعلى كل من أراد للإسلام عودة أن يربي شباب الأمة مثل هؤلاء الذين مُلئت قلوبهم إيمانًا وتفانيًا في الله وإيثارًا لما عنده». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٧١-٧٢].

٢٩ ـ بين دعوتي عبد الله وسعد رضي الله عنهما:

يقول د/ الخالدي: «التقى سعد مع عبد الله بن جحش رضي الله عنهما قبلَ نشوبِ القتال، وتحدَّثا بشأنِ المعركة، وتذكرا الأجر والثواب، والجنة ونعيمها، ووجوبَ الإقدامِ وحسنَ الجهادِ والبلاءِ والثبات.

ثم قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه: **تَعَالَ يَا أَخِي نَدْعُو اللهَ تَعَالَى.**

دعا سعد رضي الله عنه ربه قائلًا: «**يَا رَبِّ! إِذَا لَقِينَا العَدُوَّ غَدًا، فَلَقِّنِي رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ، شَدِيدًا حَرَدُهُ، أُقَاتِلُهُ، وَيُقَاتِلنِي، ثُمَّ ارْزُقْنِي الظَّفَرَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَقْتُلَهُ وَآخُذَ سَلَبَهُ**».

فَأَمَّنَ عَبْدُ الله رضي الله عنه على دعوته.

سألَ سعدٌ رضي الله عنه الله أنْ ييسرَ له رجلًا كافرًا شجاعًا شديدًا قويًّا، فيقتتلان ببسالةٍ وشجاعة، ثم سألَ ربَّه أنْ يرزقَه الظفر عليه، ليقتلَه ويأخذ سلاحه.

هذه الدعوةُ تدلُّ على طبيعةِ سعدٍ وشخصيتِهِ الجهادية، إنه يريدُ رجلًا كافرًا قويًّا؛ ليكون من مستواهُ في القوة، فهو لا يريدُ قتالَ رجلٍ ضعيفٍ جبان، ليس أهلًا لمقاتلتِه، ويريدُ بعدَ ذلك أنْ يتغلَّبَ عليه ويقتلَه، ويأخذَ سَلَبَه وسلاحَه، ليقاتِلَ به أعداء الله مرةً أخرى.

إنه رجلٌ مجاهدٌ وطَّن نفسَه على الجهاد، يَخرجُ من جهادٍ إلى جهاد، رغبتهُ هي قتالُ الكفار وقتْلُهم وأخْذُ سلاحِهم، ويحبُّ أن يبقى حيًّا ليمارسَ هذه الرغبة باستمرار!

هذه دعوة سعد، فماذا كانت دعوةُ عبد الله بن جحش رضي الله عنهما؟

قال: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي غَدًا، رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ، شَدِيدًا حَرَدُهُ، فَأُقَاتِلَهُ، وَيُقَاتِلنِي، ثُمَّ يَأْخُذْنِي، فَيَجْدَعَ أَنْفِي وَأُذُنِي! فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ لِي: يَا عَبْدَ الله! فِيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنَاكَ؟ فَأَقُولُ: فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ! فَتَقُولَ: صَدَقْتَ**». وأَمَّن سعد رضي الله عنه على دعوته.

قَال سَعْدٌ رضي الله عنه: «**كَانَتْ دَعْوَتُهُ خَيْرًا مِنْ دَعْوَتِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقٌ فِي خَيْطٍ**».

ودعوةُ عبدِ الله بن جحش رضي الله عنه تدل على طبيعته وشخصيته، وهو رجلُ جهادٍ وإقدام، وكان يتصفُ بالشجاعة، وجاهدَ في غزوةِ أُحُد جهادَ الأبطال.

ولكنه كان يتمنَّى الشهادة في سبيل الله، ويرنو بنظرِه إلى الجنة ونعيمها؛ ولذلك سأل اللهَ أن ييسرَ له رجلًا كافرًا قويًّا، يقاتلَه قتالًا شديدًا؛ لينالَ أجْرَ القتال الجزيل، ثم يكتب الله له الشهادة، وتقطع أُذُنُه، ويُجدَعَ أنفُه، في سبيل الله!

لم يكن عبد الله بن جحش ﷺ بهذه الدعوة كارهًا للدنيا، يائسًا منها، راغبًا في التخلص من الحياة، إنما كان حريصًا على الجنة، مُقبلًا على الآخرة، كان يريدُ ما هو أبقى، ويطلبُ الشهادةَ التي توصلهُ إلى ذلك!

واستجاب الله الدعوتين! فيسَّر لسعد ﷺ قتال كفار أقوياء، تغلب عليهم بفضل الله، وكَتَبَ لعبد الله بن جحش ﷺ الشهادة على أرض أُحُد.

ولذلك عَلَّق سعد ﷺ على دعوتيهما بقوله: قَال سَعْدٌ ﷺ: **كَانَتْ دَعْوَتُهُ خَيْرًا مِنْ دَعْوَتِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقٌ فِي خَيْطٍ!**

فضل سعد على عبد الله بن جحش ﷺ: كانت دعوة عبد الله بن جحش ﷺ خيرًا؛ لأنه نال الشهادةَ في سبيل الله، وهي ثمنٌ عظيم كريم.

لكن سعدًا كان أفضل من عبد الله بن جحش ﷺ؛ لأنه عاش بعد هذه الدعوة حوالي خمسين سنة! وهي مدة طويلة، جاهد في هذه المدة جهادًا كبيرًا، وفتح بلاد العراق، وهذا ضاعف أجره وثوابه، وكم عَمِلَ أعمالًا صالحة خلال هذه المدة!

وسعد ﷺ روى عن حادثة أمام رسول الله ﷺ بهذا المعنى:

روى أحمد والحاكم وغيرهما عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدًا وَنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُونَ: «**كَانَ رَجُلانِ أَخَوَانِ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَفْضَلَ مِنْ الآخَرِ فَتُوُفِّيَ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُهُمَا، ثُمَّ عُمِّرَ الآخَرُ بَعْدَهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ**، فَذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَضْلُ الأَوَّلِ عَلَى الآخَرِ، فَقَالَ: «**أَلَمْ يَكُنْ يُصَلِّي؟**»، فَقَالُوا: **بَلَى يَا رَسُولَ الله! فَكَانَ لا بَأْسَ بِهِ**، فَقَالَ: «**مَا يُدْرِيكُمْ مَاذَا بَلَغَتْ بِهِ صَلاتُهُ؟**» ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَوَاتِ كَمَثَلِ نَهَرٍ جَارٍ بِبَابِ رَجُلٍ، غَمْرٍ عَذْبٍ، يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا تُرَوْنَ يُبْقِي ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ؟!**». [مسند أحمد ٣/ ١١٥ رقم ١٥٣٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، ورجاله ثقات، والمستدرك على الصحيحين ١/ ٣١٦، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه...، ووافقه الذهبي].

يقرر رسول الله ﷺ أن مَنْ طال عمره وتأخرت وفاته، وكثرت طاعاته، يكون أكثر أجرًا من رجل أفضل منه، لكنه مات قبله!

ولهذا كان أجر سعد أكثر من أجر عبد الله بن جحش ﷺ، مع أنه لم يمت شهيدًا مثله؛ لأنه عاش بعده خمسين سنة! وهو أفضل منه أصلًا؛ لأنه من العشرة المبشرين بالجنة». [سعد ﷺ للخالدي ١٢٩-١٣٣].